يُسـري الغـول

على موتِها أُغنّي

قصص

Published by

Ogarit Cultural Center
Ramallah، Palestine
Telefax: +972 2 2403762
E–mail: ogaritcenter@yahoo.com

Copyright © Ogarit
All Rights Reserved

Published under auspices of Norad
No 7 – 2007

يسري الغول
على موتها أغني
قصص

منشورات مركز أوغاريت الثقافي
رام الله ـ فلسطين
تليفاكس :2403762 2 972 +
جميع الحقوق محفوظة
الطبعة الأولى 2007

Yosri Alghoul
Singing at her Death
Stories

تصميم الغلاف والاخراج الفني: أوغاريت OUGARIT MARKETING . COMMUNICATIONS . MEDIA
الطباعة: شركة دار القلم للطباعة والنشر – فلسطين

إلى حُضن أمي

إنّا حملنا الحزن أعواماً
وما طلع الصباح
والحزن نار تُخمد الأيام شهوتها
وتوقظها الرياح
والريح عندك كيف تلجمها
ومالك من سلاح
إلا لقاء الريح والنيران
في وطن مباح..

محمود درويش

على موتها أغنّي

حزناً وجزعاً
على موتها أغني..

***

وميض خاطف يلفني، يحاصرني، يكاد يسقطني أرضاً. طيف لسماوات عظام يظللني، يخطفني بعيداً وجسدي يرتشف غيوم المكان. ضجيج يعمر الصالة التي أنحني في جذعها، جلبة نساء فاجرات تضرب جدران رأسي، همهمة لفتيات يافعات في انتظار الرقص على تهاويم الميت.
في صباي كنت ساذجاً كما أنا الآن، لكنني اللحظة أشد من ذي قبل، لم أدر كيف أفعل في هذا الحصار؟ فلم تكن الجلبة وحدها التي تخنقني، بل صوت أخواتي من حولي أيضاً، وزوجتي التي تجلس بقربي هنا، ساعة كئيبة هذه التي تزورني. اليوم بت مدركاً أنه عام الحزن والجزع.

وعلى موتها أغني..
في الصالة ازدادت حدة الهمس والصفير، ازداد الفزع والخوف. بدأ الصوت يأخذ ارتفاعاً شاهقاً كأعمدة النور الباسقة. وقفت النساء واحدة تلو الأخرى للرقص على جسدي الميت، وعبر شقوق الألم أنتصب تائهاً، أبكي فزعاً على موتها، أصرخ علّني أتوه في ومضة وجهها الغجري.

أدندن..
يوماً كنت صبياً، وكانت هي كذلك. كنت ساذجاً، فجّاً ولم تكن مثلي أبداً، تبعتها فاختبأت فأدركت الفرصة، بحثت عنها، تهت في دروب المخيم، أزقته التي لا تعرف الاعتدال، وفي ثنايا الكون الرابض بي

وجدتها، عثرت عليها، أهديتها خاتماً ورثته عن أبي، ثم اختفيت واختفت.
وعدنا نبحث عن كلينا. تهت في دهاليزي، ولم أهتد إليها. جلت دروب المنافي، مردوانات السجون، مشرداً مطارداً كما أشقاؤها الذين كانوا حلقة الوصل بيننا، وحين عدت، كانت سافرت مع الضباب واختفت.

شبق الموت يؤرجحني..

في صباي الساذج كان وميضها يلفني، يخطفني من بين فلول الأطفال، نجري، ألطمها على خديها كما كان يفعل أبي بأمي، أصرخ بها كما كان يفعل بي إخوتي الكبار، وتصبر، ثم تهرب وأنا أتوسل إليها أن تعود، أرجوها أن تمكث معي على تلال الرمل الأصفر، لكنها كأن لم تسمعني، وفي الصباح تعود، نلعب فيتكرر المشهد من جديد.

وكانت قد تزوجت..

هكذا دون أن أعرف، دون أن تخبرني، ودون أن أصفعها كما كنا قبلاً.
وجدتها تسير مع رجل أنيق، شاربه كث غير مرتب، كان يذكرني بأبي، بأمي التي كانت تكره الشارب الذي طلّقه أبي مئات المرات، وعلى شاربه كانت تنكفئ، ضخم كما سرير الموت خاصتهما، رأيتها وقد كانت تحمل الرضيع بين كفيها، يغني ويبكي.

أغني وأبكي..

رأيتها ولم ترني بداية الأمر، لكنها عندما أدركتني، تشممت عطر الماضي، مساحة البوح فسقطت أرضاً، لحظتها لم أعرف كيف أفعل؟ هربت، نعم هربت أبحث عن مأوى ينجيني من هول الكارثة التي طوحتني. كيف لي أن أنساها بعد ذلك؟ ونسيتها ثم عدت.

وعلى موتها أنتهي..

عندما ولجت منزلي وجدتها منكفئة على وجهها. ارتعدت فرائصي، هوت بي الدهشة، هل هي حقاً أم أنها ضرب من الخيال؟ ولم أكن أعرف أنها أغلقت قلبي بمفاتيحها الجميلة، حلمت بها ليلتها كما رأيتها، لكنها كانت بغير ذلك الخاتم. صعقت ولم أسألها عن مكانه.

استيقظت من نومي وكان الخاتم في يدي، أعطيته لمجنونة جديدة تجلس بجواري الآن، وفي الصالة مع جلبة النساء سقط الخاتم أرضاً وسقطت معه أحلامي القرمزية.

أغني..

كانوا جاءوا بها جثة متفحمة ليلة أن فكرت بزيارتهم مع والديّ في المساء، ولجت الحارة الضيقة. كانت حدة القصف تروّع السكان جميعهم، سرت تجاه الطريق الترابي الغائص بنفايات المخيم، وهناك كانت الجموع ترفرف حول أقبية الثكنة، سألنا وسألت عما جرى، ثم فجأة سقطت في موتي، إغفاءتي التي طوحتني أرضاً، كأنني لم أع ما كانوا يقولون، سقطت أرضاً وأنا أسمعهم، كان أحدهم يصرخ وقد غسل العرق جسده كحمامة طاهرة تغتصب السماء: لقد تهاوت مع صاروخ غادر صفع شارع المخيم بأكمله. وانتهي مع الغبار.

****

ميت أنا
لكنني على موتها سأظل أغنّي
وأغنّي
وأغنّي..

فتاتان برائحة الغربة

ذهبت إلى مكان، تجمعني فيه الذكرى، تأخذني إليه، تحاصرني، أتوه في منحنياته، أتزلج شبقاً في لوحة الوجد التي سبقتني. أسير دون أن ألتفت إلى أية جهة دون وطني، تشع من خلال الروح شمس ترسم الدفء على أقدام المارة. ليست سوى الأقدام التي تتعرى، بينما يلتحف باقي الجسد بملابس نتنة الرائحة.

كنت – ولم يكن أحد سواي – أسير في ذلك الوقت الشتائي اللذيذ، داخل تلك المدينة الكبيرة، أدندن مع كل خطوة أخطوها خارج سرب الـ (Guest House) الذي مللته، وعلى بوابة الطريق المتجه إلى سوق المدينة. انسللت من قدميّ وسرت رغماً عنهما. كانت روعة المنظر تحاصرني: أضواء خافتة، كابية تظلل المحال التجارية الضخمة، المتخمة بألوان وأشكال هندسية غاية في الدقة. هي المرة الأولى التي أرى فيها تلك المعالم المترهلة، المرة الأولى التي أسافر فيها إلى بلدة لا أعرفها أو تعرفني. شعرت بأنها تستوحش ملابسي، هيئتي العربية، لون العينين، استدارة الوجه، كل ما يخصني من تفاصيل. حتى سكّانها كانوا يهابونني. ينظرون إليّ تلك النظرة المشوبة بالازدراء والحقد. كدت ألقي على أحدهم تحية الصباح، لولا أن أحد أصدقائي حذرني بصوت باهت:
– لا تظن أحداً هنا يرغب في رد التحية على أحد الغرباء.

دار في مخيلتي ما يجري في طرقاتنا. ذات يوم كدت أنسى أن ألقي تحية ناشفة على أحد الذين أراهم كل صباح، فثارت ثائرته. في اليوم التالي أشاح بوجهه عني، فأصبحت لا أنسى تحية الأمل. صرت لا أقف دون أن أبعث برسالة الود إلى من لا يعرفني أو أعرفه.

أضحك الآن. ضحك يستشري في مساماتي، لست أعرف الصمت ولا الموت يرغب فيّ، أحب العزف على أنغام الكلمات، أتوارى مع سحب المطر، أواصل طريقي الموغل في عمق المدينة التي تكرهني. حزن يتناثر مع رذاذ شتوي، صباحي ناعم يدغدغ آهاتٍ علّها تنبعث شوقاً إلى أم احتضنتني قبل أن تتدثر الرمل. إلى أسرة ما زالت تنتظر مني الكثير ها هنا، وليس سوى القليل، القليل. ومع تغريبة الشوق ألهث، ككلب لم يستطع الوفاء بعهده، أسير مع زخات من مطر مجنون، دموع بت لا أعرف كنهها تختلط مع ذلك الرذاذ الشتوي الذي امتزج بأرقي، وعند حافة نهر الراين، أتوقف، ليس أمامي سوى عدة محال تجارية هزيلة (C & A) و(Macdonald's) هل أختبئ في حضنهما؟

المطر الذي يراودني خلسة، كأنه يرغب فيّ، يتمنى الالتصاق بجسدي الفتي، الهرم. أتوارى دون أن تصفعني زخات جديدة من وجع المدينة. لحظتها فقط تمثلت أمامي صور لم أعد أذكرها جيداً لأخ يهاتفني كل عام، يرسل رسائله الباهتة كي تذوب في شوق جديد معي، تتمزق على تلال الحكاية. تهاويم وتهاويم تحاصرني، ترتعش كغصة في حلقي، تستوقفني عند منعطف يتجه إلى بار كبير يجوبه المتسكعون في المدينة. لم ألتفت إليه ولن أعرّج في اتجاهه يوما ما. أواصل السير متأففاً، أصطدم بفتاتين تجتمعان معاً في اختلاف الشكل والبنية. إحداهما سوداء تضع بين أسنانها طاقماً من حديد، وأخرى بيضاء ترتدي ملابس مظلمة، كامدة. أمرُّ من أمامهما دون أن ألقي بالاً لأي منهما، أسير وقلبي يرتعش، يدق كسُاعة لن تتوقف، تك، تك، تك، وعندما أخطو خارج سرب الحكاية تستوقفني السوداء فجأة، تبتسم بينما تتحدث الأخرى بلغتهما التي أكرهها، تلفظ بالكلمات والهمهمات التي حفظتها عن ظهر قلب. أتصنع الكذب، أخبرهما أنني لست من بلدتهما، أنني لا أعرف التحدث بلغتهما على الإطلاق، أقول بإنجليزية رثة:

- Can I help you

تجيب الثانية بسهولة:

– Yes ، Please

تطلب ذات الوجه الطفوليّ منّي شراء علبة من الجعة لهما، لأنهما قاصرتان. تخبرني بذلك في رجاء حارٍ و. . . لا أدعها تكمل حديثها الأجوف، أسير دون أن ألقي لهما بالاً.

هما ذكرى مرت من هنا، بجوار قلبي الذي ذاب بعد ذلك الحديث إلى حبيبة ماتت بعد العودة إليها بقليل

طائرة لحرمان قديم

– الطائرة ستقلع بعد لحظات، على جميع السادة الركاب التأكد من ربط الأحزمة جيداً، والامتناع عن التدخين، شكراً.

*****

عذب ذلك الصوت الذي يراودني. عذب كما أسمعه الآن، بكلّ تضاريسه القرمزية. تلك المضيفة التي تختفي في انحناءات روحي، تتحدث بشغف من خلف القمرة الواهية، تتحدث كأنها ستطير إلى بلاد حالكة لا تعرفها. أراها تبتسم كما الموج الذي يخطفني، تتوشّح عنفوان الروح وتصدح بتغريدها المتواصل، تخترق تواشيح كلماتها مسامات جسدي الذي ما زال ينتظر وصول الروح إلى مدينة أحبها، تعج بالفوضى والبشر.

يتمايل رأسي قليلاً، أسنده بحنو على مقعد واسع يغرقني بحزني، بينما تخترق مخيلتي كل تهاويم الكون البائس، تحيطني كهالة رعب. تعاودني صور ألفتها. أخترق ألبومها. تقفز من قاع الذاكرة ورديّ اللون، تقفز كما لم تقفز من قبل. يبدأ شريط الذكريات في استرجاع أيام حالمة توالت معي. تنبثق كما العطر الذي يفوح أريجه من أنفاس القابعة بجواري.

صور كصحراء التيه في بقايا العالم الضائع، صور لها وحدها تلك التي تستند إلى جواري الآن، تعاود فيّ أيام ألفة ووداد قضيناها معاً، بعيداً عن تضاريس بلدتنا الضيقة.

أبصرها ناضجة، فاتنة. أحدّق في وجهها الرائق، أتوه في عينيها، أرى فيهما دموعا تستعد للانطلاق. أبتسم وتبكي، تخترقني نظراتها، تبتسم بملء فكيها فتظهر من خلال شفتيها تشققات

لم ألحظها هناك. أبكي ونبكي. تخبرني بعينيها لحظات وديعة قضيناها معاً، سويةً في مكان واحد، قبر كبير واحد.

أتأملها، أبتلعها بعينيّ فتدور عجلات الزمن الوئيد، أتساءل بيني وبيني: كيف لي أن أعود إلى المخيم وحدي؟
أغمض ذاكرتي، أفقأها حزناً وجزعاً، أنحني رعباً عن مقعدي، ألتمس الجنون، أغادرها، أطيل النظر في النافذة، أحدّق في ملكوت خالقي العظيم، تتراءى أمامي المدينة قادمة مع الريح، متألّقة كعذراء تنضح بالحياة.

شيء يهزّني بعيداً، أشيح بوجهي مرة أخرى إلى مرآة الأفق الساكنة، زرقة لازوردية عذبة تنبعث كما ابتسامة رفيقتي التي تعطيني ورقة حصلت عليها أثناء غيابي في عالمي البعيد. تطلب مني تعبئتها حتى نسلمها عندما نصل أرض المطار.

تتراكم غيوم في عينيها، تحيطني كسرب تائه عن حتفه، تطوّحني، تعاودني أنفاسها، لهاثها الأنثوي، تلاحقني، تمتص شراييني الملتهبة، تشير بإصبعها لي وقتما بدأت الطائرة في الانحناء صوبي، ترشدني كي نرى العالم بعين واحدة. تنادي بداخلها آلاف المرات، تضحك، ثورة من الضحك تضجّ في داخلي خلالها صورة صديقي أحمد، رديفي. كاد يبكي ساعة أن طرقت باب غرفته الواسع. كان حبيساً طيلة اليوم ذاته، وقت أن غادرنا جميعاً ثم أخذنا نهذي بالرحلة الضائعة. حملنا أمتعتنا، والمفاتيح أيضاً. ناداني بصوت أجشّ، ظهرت به نبرات القوة التي ما زالت تحلّ بجسده. شتائمه تطايرت في فضاء المكان. طلب مني أن أفتح له الباب ففتحت. بدت تقاسيم وجهه غريبة لم أعهدها من قبل، كأني لم أكن أعرفه. انتابتني موجة عارمة من الضحك، ضحك يتهاوى صداه داخل هذه الطائرة. تضع جميلتي يدها بحنو على فمي، تخنقني خوفاً من جنوني، تتأملني، تمسح الدمع الذي يترقرق، أشعر بشيء يؤرّقها، يؤرقني. أحاول أن أجذبها نحوي. أجذبها

نحوي. تحول بيننا يد الكرسي المنتصبة في الوسط. أتمدد متألماً بينما يأتيني صوت المضيفة عذباً مرة أخرى:
– دقائق ونصل أرض المطار، برجاء الاعتدال في الجلوس وربط الأحزمة جيداً، شكراً.
آه، دقائق وينتهي البحث في دروب العودة. تغادر روحي المكان، كأنها وحيدة ووحيدة تبقى. تشرع في سرد لحظات خلّدتها ذاكرتي. غادرتهم جميعاً قبل ساعات من نهاري، وها أنا سأغادرها الآن. تسقط دمعة ثكلى، تنزلق بينما تتشرّب كفّي القاحلة دموعاً حمقاء من عينيها تودعني بها. تحدّثها نظراتي الخائبة، فتنفجر من مقلتيها سيول الجوع لحرمان قد يأتي. تخفت شيئاً فشيئاً، تسألني:
– هل سأراك عندما نعود؟

ولن أعود. أحاول أن أقول لها شيئاً، لكنني أشعر بالطائرة تشرع في الهبوط. تتعلق بي. تعانق يدها الناعمة يدي التي أصبحت نهراً لبكاء قديم. تخترق أصابعها يديّ. تشدد قبضتها فيّ. ترتطم عجلات الطائرة بالأرض،. يتنفس كل من حولنا الصعداء. نتنفس الموت. يصفقون. نبكي. أنفض من رأسي تلك الأفكار الساقطة، أحدّثها:
– أما زلت تريدين مني الذهاب معك إلى المدينة؟

يبدأ المسافرون في الخروج، واحداً تلو الآخر. نبقى في مقاعدنا متأخرين. أنتصب واقفاً. تهرب الذكرى الخائنة. أتحرّك قليلاً. أشعر بأن في عينيها أحلاماً قرمزية. أرجوها أن تتوقف عن الذكرى:
– الجميع ينتظر في الصالة، هيا نغادر الطائرة.
نغادر الصالة، وعند الباب، أتخذ مساراً آخر. أغلق عالماً قضيته معها حالماً:
– إلى اللقاء. أراكِ لاحقاً.

أكذب. أختلق الكذبة التي تأبى الخروج لأنني أعلم أنني لن أراها يوماً، فقط لأنني لن أعود.

المسافر

الدرب طويل:

الشمس بعيدة تتوارى خلف تلال الخوف، تختفي، ينجلي ضبابها.
للتوّ يلتحم الظلام بالمخيم. تلوح أهازيج الليل خجلى في الأفق الممتزج بسماوات الذاكرة. تتعالى الأصوات، تتهافت في وحل المأساة.
يصيح فتى بجنون، وقلبه معلّق في تهاويم المرآة:
– إنه القادم مع ريح الجنوب.
تندب صبيّة حظّها كطيف زقاق مهجور، تترنح، تهذي بصوت مسموع:
– تقدم أيها الطيف مع أشلائي الميتة.
تولول عجوز منذ زمن العبور الأول. تصرخ وقد غسل العرق جسدها كعصفور بلله المطر:
– إنها وعثاء السفر تلوح في صحرائه.

الأصوات قوية، صلبة، جامحة، تتعثر في أزقة المخيم، تتطاير الهمسات مع بحر الحكاية إلى مصب النهر القديم.
ينظرون محدّقين من هول المشهد، بينما تتهادى الدمعة ثكلى على وجه الصغيرة.

تخرج النساء واحدة تلو الأخرى، تعلو وجوههن كلّ صور الفاجعة. تترنّم إحداهن لجارتها وشبق الوجه يتوارى مع الضباب:
– لم يكن ليخرج وحده هكذا. لعن الله لحظة الضعف، تلك التي قرر فيها مع ضحى ابتسامته أن يسافر إلى المجهول، حيث الجنوب المتألق مع وشائج الإعصار. كان يودّ الولوج في مصب الآتي الغريب.

تصمت. تتعالى الأصوات، تزمجر، تفوح رائحة التراب في جنبات المكان، يتقدّم الحشد. ينتصب الجسد مسجّى على الأكتاف، تعلوه سحابة عظيمة تظلل القادمين إلى عرسه، وفي أتونهم حقبة الانتظار لجثة همدت مع ترانيم الصباح العائدة.

تخرس الأنفاس، تهدأ، يصمتون جميعاً للحظة لم يدر أحد حقيقتها. يسقط عجوز سار خلفهم بخطى وئيدة، ميتة في رمال الحكاية، ليهتف بشحوب الجرح:
– إنها أسراب الطيور تحلق أمام الضريح.

ينظرون جميعاً بعيون هلعة، تنتابها الدهشة. يهزجون بصوت النائم، الحزين:
– هنا سقطت حمامة لتجلس على نعشه، هنا تخطت اليمامة قبره. هنا..
ترتجف السيقان، تتعالى الأصوات، تغفو العيون، يترنحون:
– كراماتك يا موجود.

يكبرون جميعاً، يهتفون بروحه، تتعالى الطلقات تزنر في الفضاء. نشوة من الغريزة تتعثر في الأجساد المتخمة بألم شريد. يرتوي الجميع عطش الهمهمات، يتقدّمون، يتقدّم، يقترب، وعند سور المقبرة تتفرق الحشود مغادرة إلى ردهات الماضي. حينها فقط يتمدد المسافر منصهراً في حرّ الحكاية، ليبدأ في سرد روايته للقادمين – حيث الشرق الأدنى – من جديد.

*****

كان مغادراً تجاه منزله، ثكنته، خيمته القديمة التي نشأ وترعرع في ربوعها. يحلم وأريج الشوق إلى الوطن يزكم أنفه. السيّارة تطير مسرعةً حيث العبور. لم يكن يودّ الحديث إلى زملائه داخل العربة النائمة. الأنفاس متلاحقة. تجثم على صدره، تعلوه، تطبق

على أنفاسه. يجلس بجوار السائق، يحاوره بنظراته دون أن ينبس ببنت شفه. قيثارة تعزف صمتها القديم. تتهادى الأصوات من البعيد مع سكون الليل الداكن على رصيف الذاكرة. ينام جميع سكان العربة الميتة، والسائق تراوده فكرة الانتظار على الرصيف لبعض الوقت. يتمتم لنفسه. يخشى تأخر الركاب عن موعد الولوج إلى بوابة المدينة الضيقة، المهترئة. يواصل سيره دون أن يحادثه أحد، صورة الصحراء عميقة، قاحلة، تتخثر مع قطرات الماء التي بللتها رطوبة الأجساد النائمة. وريح سيناء تهبّ لتلفح تضاريس الوجوه المغبرة. كان جبل الطور بعيداً. انتصب فوقهم كأنه ظله، ظنوا أنه واقع بهم لا محالة. سجدوا على أعتابه. وقفوا. صعدوا واحداً تلو الآخر يناجون ربهم بالرحمة، يتوسلون إليه، أن ينقذهم من مشقة الانتظار، العودة إلى الوطن. وعندما تحين الساعة تنتهي طقوسهم. تنطلق المركبة بخطى وئيدة، ثقيلة تهيم على وجه الأرض. يسيرون وصهد الشمس ينفر في عيونهم نزيف الشوق، البيعة للمشاركة في حزن الآتي العميق.

يستيقظ الجميع مع نفحات الظلام. الهزيع الأول من ليلة الجمعة يجوس في أعماقهم. سيصلّون هناك حيث القبلة القديمة. يفتح السائق المذياع وصوت فلسطين يترنّم رائقاً. غناء عذب، شجي يهتف "يا وطني الرائع يا وطني . . ." . يخبرهم السائق بالاقتراب من نقطة الصفر، العودة إلى جحيم الانتظار، بأنهم اجتازوا مدينة العريش بأكملها. تغفو الأنفاس جميعاً عند دهاليز ضيّقة لحيّ تغبّر بالتراب. يقترب السائق أكثر فأكثر، ومع ظلال القمر تلوح صورة الزوجة، الأم. سيكونون جميعاً في انتظاره. لم يغب عن مخيمه قبل ذلك أبداً. ثلاثون يوماً تجثو في أعماقه ثقيلة، متخمة باللوعة. شعر كأنها سنوات طويلة قضاها مع الوهم. يغفو في انتظار الوصول إلى الحدود مع حلكة الليل القاتمة.

كانت الريح القادمة من الشمال تتخثّر في أجسادهم إلى رحاب واسعة، كبيرة، تسعهم جميعاً وقتما تغمض الأعين ناعسة/غافية

إلى ملكوت الكون، ليرتطموا بشاحنة كبيرة، كمقرّ قيادتهم الأول، تمزّق أوصالهم الحالمة دون الولوج في ردهات المخيم وأزقته المحطمة، حيث الأفق البعيد، دون حدود.

تذييـــل:

كانت الزوجة تتشدق بالحكاية ليل، نهار. تهذي في غفواتها. تنوح حمامة أرادت السقوط عند بابها، تولول، تصرخ، تسقط مغشياً عليها، والجنين ما زال ينتظر الخروج من رحم الأرض، ليحمل صورة وجه متعب، إلى أزقة باتت تتكدس برائحة الموت في كل مكان.

عريس آخر النهار

بين صفحة الضوء وخطوط الظلال تنساب قطرات الماء دافئةً على وجه الصبي الذي ما زال يحدق في الشمس الصغيرة، وعبر مجرى الظل تلوح الدمعة ثكلى في عينيه القائظتين تغوص في عمق المكان. يتأمل المشهد بجرح وجهه المغبر. يجول ببصره أرجاء المنطقة. الصراخ الذي يتعالى، يتهاوى مع أديم الجوع، الخوف من هدم جنبات الغرف القديمة.

كان الجنود يفترشون الأرض بظلهم القاتم، شاحناتهم المترعة بثقل الحكاية. ينزعون بقايا صورة الأرض من ساكني سهول الساحل. يطلقون كلابهم تنبح ملتهمة سكون الموقف. يُخرِجونهم واحداً تلو الآخر من مساربهم الضيقة. يصرخ الجندي فيهِم وفي إحدى يديه هراوة حط عليها ثقله الميت:
– عليكم أن تخرجوا بسرعة.
ثم متابعاً:
– بعد خمس دقائق سنفجر المبنى كاملاً.

يصمت، بينما يلفظ عجوز آخر أنفاسه على عتبات داره المهدمة، لا يأبه لحاله أي من سكان البناية. يتوارى وجهه خلف سحب الدخان، والجميع غارق في وحل القرار الذي استعدوا للقائه منذ زمن الاشتعال الأخير. تتداركهم فوهات البنادق. شبق الرائحة يراودهم. ترنيمة الشوك تلتصق بحلوقهم كما المستوطنة القائمة أمامهم. يحملون الزمن ثقيلاً في أكفهم، يقبعون فيه أمدا طويلاً، بعيداً عن أعين الجند.

المستوطنون الذين أبلغوا بذلك قبلاً، أرادوا تفجير كل ما يحيط بأسلاكهم الجامحة، حتى أضحى لديهم قرار الهدم لجميع الثكنات المتدثرة عباءة ليل المحارب. ينظر الصبي من البعيد، بالبندقية التي

لاحت أمامه ولهى تنتظر عريس آخر النهار. تتماوج ثقيلة، ضخمة تجوس في أعماقه. يبصرها من خلف شباك غرفته الواطئة، والدمعة تتهادى على وجنتيه الحمراوين. يتأمل ستراتهم، خوذاتهم البالية، أحذيتهم التي ظهرت علاماتها في جسد والده قبل أن يموت، يغوص بعينيه بعيداً، يستجلي صوراً في زاوية من مخيلته الضيقة تراود خاطره. تفتح أمامه كوة ضيقة، يرى فيها عجوزاً تجذبه إلى جوارها، ترضعه المأساة كاملة، يلثم ثديها حتى يجف الحليب في حلقه. يبكي والأم تهدهده بينما تبدأ أسراب العائدين بالتحليق كنسر جائع حول جثة أبيه. تترنم أمه بأغنية كان يكرهها. تخبره بمقتل أبيه، جده، أعمامه جميعاً. يبصر دماً قانياً ينزف بغزارة، والحكاية تتمزق كجرح جليٍّ يمر مثل شريط عمره الصغير. الذاكرة تعتمل في صدره. تهدّم البيت أمامه في لحظة لا يعرف كنهها أو يدري حقيقتها. تلوح أطياف الغبار حزينة، مسافرة إلى أفق المخيم الممتزج بسماوات الضياع.

تطير قطرات الماء لتصفع وجوه الحاضرين، والليل سيمفونية تعزف ألحان الخوف لرهبان النهار، يقف الجندي أمامهم والهراوة تتهادى كراقصة فاجرة، ساقطة. يحدق بعينيه في وجوه الحاضرين. يحلق كصقر يفترس الأجواء، وعندما يدرك عدم وجود أي من الصحفيين في المكان، تبزغ الخديعة في وجهه. يضرب رصاصة في قلب امرأة تنوح داراً ضاعت مع ريح الانفجار. تخترق جسدها، تطيح بها. يغتصب عينيها بضحكاته. تتكتم الآهة. تنفجر، فينفجر جرح الصبي في شفق الصورة غائراً. يصرخ، يصرخ والدم يتدفق رقراقاً على جسد المرأة الممدد على الأرض الصلبة. يحدجه الجندي، يبصره كبيراً، ضخماً، يوشك على افتراسه، يتراجع. يطلق رصاصة جامحة تجاه الصغير، يبتسم حينما تصل الرصاصة حلقه، تطعنه. يسقط مترنحاً يهيم على وجهه. يسبل جفنيه، يستحلب ريقه والمشهد يتكرر أمامه. تواشيح والديه تلوح في سمائه. الرعد يهزّ صورة الجبل الجميل، والسماء تندف بآلام الإجهاض المتعثرة، يصرخ، يبكي خائفاً والدم شلال

لنهر المكان، يقترب أحد أعمامه، يرفعه بين يديه، يطير به مسرعاً. يسافر عن وجه الأرض الصماء والحكاية جرح يغور في عمق الأم التي أبصرت الجسد ملتصقاً بجوار قبر أبيه قبل أن تودعه وتعود حيث الخيمة التي تنتظر نصب الأوتاد من جديد.

فلسطين تحت المطر

ألوان زاهية تخطفني، تحاصر ظلي المتكسر كعيدان قش صنعت بها كوخاً في طفولتي، أزرق، بهاء ينتشي مع إطلالة سحب أرجوانية رائعة، أحمر كليالي غابرة تقتلني، أخضر نقاء يفترش بقايا مخيلتي، ألوان وألوان تحاصرني، تمتد لتلفح ما يراودني، أراها بهية متداخلة تختلط في قلبي، تتمرد على صمته، تطرأ عليّ فكرة جديدة، أن أرسم ما يطفح في عيني، حب، غروب حتى الغرق، لكن حزني يملأني، أتذكر والمطر يغور في البعيد الذي يطوحني، يقشعر بدني، لا أفكر في الأخضر أو الأزرق أو أي لون آخر، شيء يجذبني إلى نقش آهات المطر على أسوار وطني، عالمي، أتساءل بيني وبيني، لربما هي لوحة القدس تحت المطر أغرتني، لا ادري، سأحاول أن أرسم، أفكر جدياً بذلك، لكن خوفي يتملكني: "هل سأنجح إن فعلت؟" سؤال يؤرقني، أنزع عني روعي، أمسك بالفرشاة "سأرسم"، والكلمة تطن في أذني. أفترش ظلي على اللوحة. أغمض كل ما يبعدني عن مطري. تبدأ يدي بالانصهار في بوتقة اللوحة، أضع خطوطاً باهتة لمجازاتي، أرسم سهولاً دون وجه، بيوتاً دون أسقف، وتملأني الحكايا، تبحر بي في دهاليز عواصفي، أسقط قطرة ماء، أسقطها دون أن تؤذيني، وفي اللوحة رذاذ خفيف يطاردني، أصنع عالمي، بيوتاً قرميدية تتكسر مع وجنات الماء النابضة كحزني، أتعثر في شجوني، أمطاري تتساقط بغزارة، قطرات تذكرني بالتيه في بلاد الغرباء، التزلق في ثنايا الأرواح، آلام وانهيارات ساقطة، مبتذلة، لكنها لطيفة، رائعة. أسقط الفرشاة على اللوحة "سأخنقها تلك الساقطة"، ووجه عبوس يموت مع كل بذرة ماء تتوالد في سماوات الحب الرابضة، أتأمل اللوحة، تبهرني قدرتي، أجدني قد فعلت شيئاً، رسمت، صنعت ما أدعيه فناً، نعم فعلتها بحق، لا أصدق ما تراه عيني، لم أكن أدرك أني سأنجز ذلك فعلاً، وأطرق جدران عقلي: "لقد كانت مجرد

فكرة "، أضحك: "هل هي من حركتني؟" أضحك بضجيج أنفاسي المتلاحقة، أتوقف، "هل أنهي تلك اللوحة؟" وحبي لسرد لحظات خلدتها نشوتي تستوقفني "أنت بارع حقاً". شيء يرجوني التمهل، أسقط كتلاً من الحقد، الثلج، وفوق سطح منزلي تتكاثف كاختناقي، أتعثر مع أخي، نسقط بعد تكسر الألواح القرميدية المتهتكة، نصعد وتصعد اليد لتكمل مشوار الحرث في ضباب الماء الواهن، قطرة أخرى وأشجار السرو تظللني، عجوز تجري كصبية في العشرين من موتها، أتعثر بصورة مخيمي، وأبكي. تمتزج أمطاري بلوعتي، غربة في وطن، قطرة أنقى من دموعها، حبي أفرشه معها لها، تلك التي باعدت بيني وظلي، أشيح بوجهي عن تلك السقطة من الماء، أغربل بقايا شتائي، الوطن يتلبد بسحب الانفجار: "فلسطين تحت المطر". شعور بالغبطة للوطن يحتويني. "نعم، هي تحت المطر" كما هي هناك في عالم الأموات. ليست القدس وحدها، هنا "فلسطين تحت المطر" كما كل عام، وكل لحظة، كما رأيتها في غربتي الهائمة على وجهها، وقبل أن أسقط منهمكاً في خوفي وأختفي، يتردد سؤال في قيعان دواخلي، يرهقني، يفجّرني كي أنطق به، أكتبه تحت قطار موتي "هل سيراها من هم مثلي كما أراها الآن؟ هل؟.. " ولا أدري كيف الجواب؟

خلف جدار الموت

خرجنا مع آخر ومضة واجهتنا، جثونا نحو البعيد. كل منا يحمل سلاحه وأسداله، نتعثر بخشخشة الثياب على الأجساد. الطائرات تحلق في المدى الفاصل بين الموت والموت، ونحن نختفي بين انثناءات الروح، نداري أشباحنا خلال مسيرتنا نحو الحدود. الأجساد تلتصق بالجدران، الحجارة، الصمت. وعندما ندرك أول منعطف يتجه نحو الشمال تطلق الدبابة قذيفتها، تلقيها بجوارنا فنختفي، نتوسد الرمل، نلتصق مرة أخرى بأجسادنا، ونلزم الصمت. عندما وصلنا نقطة التجمع كنا أربعة فقط، وكان الخامس ما يزال يرقد بسلام بين الألم والموت، اكتفى بما جرى معه تلك الليلة الضبابية الخابية، حين غادرنا الأصقاع المتاخمة للمخيم. بكتف واحدة أخذ يعدو، نسي الأخرى أو تناساها، بينما نحن ما زلنا نجري، نهرب كالمجانين، نتعثر بالموت في كل مكان، ندوس الخوف دون أن ندرك من سيحالفه الحظ بالبقاء على قيد الجنون

حين ولجنا المنطقة المحددة، انصهرت مع أشباهي. جلسنا القرفصاء، أخذنا نجهز أسلحتنا من جديد،
تحدثنا بصوت خافت ملؤه اللهاث إلى أن انتهى العزف تحت سمائنا الباهتة، اختفت أصوات الطائرات، تلاشت، كأننا ما زلنا نتسكع في صخب المدينة. لحظتها فقط ضحكنا، كأننا في رحلة نحو المجهول الذي يراودنا، ضحكنا ثم بدأنا العمل من جديد....

*****

مع هزيع ليلنا الأخير بدأت أدندن بأنغام لم أفهم معناها بعد، قمت أتعثر بصخور لم تكن موجودة من قبل، فئران لم تكن قد سكنت المكان تداعب أقرانها، تجري دون أن تأبه بما يجري في هذه البقعة القذرة من العالم.

هذه الفئران التي لم تتركنا نهنأ في مواقع رباطنا، أخذت تجري تجاهنا دون خوف، كأنها لا تأبه بوجودنا. لحظتها حاول قائد فرقتنا إخافتها فأشعل أضواء بطاريته القديمة، لكنها لم تهرب، بل عادت مرة أخرى تجري بين سلاحنا. ضحكنا وضحكنا حتى أن أحدنا حاول اختراع الحكايا، فهتف:

– هذه التي تجري بيننا "حردانة" وتريد أن تنتحر.

ابتسمنا، بينما تابع الأخير حكايته بجدية أكثر:

– ها هو زوجها قد حضر كي يستجديها عطفاً أن تعود إليه..

صخب يتعالى، وأنا وحدي يملأني الحنق. تراودني ملامح زوجتي التي غادرت إلى بيت أهلها كي لا تموت معي وتدفن بين الأنقاض. وأنا لا أستجديها عطفاً، لا أتوسل إليها بأن تعود . . . " حاولت جهدي أن أثنيها عن قرارها، لكن دون فائدة، كانت تخشى على وليدنا وروحها من الانفجار، الموت في دوامة الصفر.. وأنا المكلوم أغفو على أحزان لا تنتهي ". لا أبالي بعودتها، ولن أفعل.

*****

هذا الفأر الغبي، إنه يغيظني، يثير بداخلي خوفاً من شيء ما، أحاول أن أقوم إليه كي أقتله، أمسك بحجر ضخم. ألقيه بقوة تجاهه، لكن صوت القائد يهتف بي:

– احذر، تريد أن تقتلنا بجنونك هذا.

أغمض عينيّ، أفقأ حلمي، "سأتركها، نعم وستدرك أنني كنت مصيباً يوماً " . . . يوقظني أحد الرفاق من بقايا الكابوس لحظة أن يعبث بأجزاء سلاحه النائم. يفزعني حين يهتف القائد مرة أخرى:

– لا تفعلِ ذلك مرة أخرى، وإلا.

ثم متابعاً:

– سنغادر الآن هذه النقطة السوداء، لأنهم ربما أدركوا المكان بغبائكم.

لهاث كجريان الدم يسري في جسدي المحموم، يحاول أحدنا الاحتجاج، لكن دون فائدة. نقوم ثم ..... قذيفة تنفجر بين أقدامنا، تطوحنا، لا تتركنا نهنأ حتى في قرارنا الأخير، نموت بسرعة غريبة، وننتهي قبل أن تنتهي الحكاية . . .

وجه غريب

الوهم:
ليل الشتاء يوغل في عمق الظلام، يتدثر سقف السماء البعيدة. نور خافت يتبدّى قريباً من الأجساد الباهتة، بصيص النور يختفي بين لحظة وأخرى، بينما يركن كلّ شبح من الرجال في زاوية من زوايا المكان، هرباً من مواجهة الضوء القاتل

في وطأة هذا الليل المتكدس على النفس كهمّ فاجع، يتقدم الفتى قصير القدمين أمامهم، يتعثر بنباح كلاب هائمة، جائعة، يتحسس جبهته، وجهه، يتجه نحو صنبور الماء المكسور، يفتحه ببطء، تخرج المياه مالحة كدرة تبلل وجهه الخشن، يتوضّأ، يصلّي، يطيل السجود، تمتمات تعلق بآذان الآخرين، ينتهي، يتأمل رفاقه بأسى، يبكي، يترنم بصوته الأجش، يهذي، يسرح في شجونه. يتوقّف، يحدّق في المرآة، يبسط يده نحوها صامتاً، يرى فيها شبحاً مهولاً يشبهه، شيء يعتمل في صدره، يدرك أن فيها بعضاً من ملامحه المترعة بحرمان قديم، يتمتم:
– كأنني رأيت هذا الوجه من قبل.

ينظر أمامه بأسى، يفرك عينيه، يتأمّله جيداً، شيء في نفسه يجعله متأكداً من أنه رأى ذلك الوجه الغريب من قبل، يسترجع ماضياً قريباً، يمسح رأسه العفن، يهرش بيديه ظهره الممتلئ بالبثور، تخترق عيناه السقف، لم يستطع تذكّر الوجوه التي تداخلت جميعها، لام نفسه على ذلك، علم أن المرض حلّ بأركانه المتعبة، تأمله جيداً مرة أخرى، أغمض عينيه فترة قصيرة، دارت أجهزة العقل الميت دورتها المعهودة، دون أن يعرف كيف حدث له أن ينسى هذا الوجه. كأنّه يعرفه، أو رآه في يوم غابر طغت عليه أمواج دهر مفعم برائحة الخراب، لا يدري، يظنّ في نفسه أن هذه التشقّقات والتجاعيد أضحت مألوفة لديه: الجسد النحيف، العيون الجاحظة،

الأنف ذو الأرنبة الدقيقة، كلّ هذا يذكّره بشخص كان يعرفه، لكن لا يدري متى أو أين كان ذلك؟

المرآة:

المرآة التي تفتتت إلى أشلاء مقطعة أضحت المشكلة التي تعتريهم جميعاً في ذلك المردوان، فلم يعد بمقدورهم مشاهدة مسرحيتهم الهزلية التي يتقنها صغيرهم كل ليلة. أدركوا وقع الحادثة على نفسه، استعاذوا من عقدة النقص، خشوا عليه من القيام بما يؤذيه ويؤذيهم جميعاً معه.

وضعوا أيديهم بحنوّ على رأسه، واحداً تلو الآخر، بينما أخذ يتلو في نفسه آيات من الرّقية حفظها عن جدته، مواسياً روحه البائسة على الفقيد الذي ارتحل مع جدران المرآة المكسورة.

المحقِّقون :

بعد أن علم جميع سجناء القسم بتلك الحكاية انفجروا ضاحكين. لم يتمالكوا أنفسهم، وفي أقل من يومين أضحت الحكاية حديث نزلاء غرف التحقيق التي لم تغفل عن ذلك أبداً.

أخذ المحققون تلك الحادثة وسيلة للضغط على بعضهم من أجل الاعتراف عن صقورهم المنتفضة، أو الاعتراف عن حماقاتهم النضالية. وعدوهم بإطلاق سراحهم من تلك الأقفاص الباردة إن هم أقلعوا عن ارتكاب آثام تجرّهم نحو العودة إلى بئر الظلام. ثم أمروهم بأن يذكروا قائمة بأسماء أولئك المتمردين داخل السجون، ومن يثيرون الفتنة في أقفاص الموت، مطالبين بالإفراج عن الطيور المهاجرة، والخروج عن طاعون العالم، حتى يضمن كلّ واحد منهم العودة إلى بيته بسلام.

الرِّجال :
وقتما أدرك الرجال الخديعة والوهم الذي عايشوه تلك الفترة، وبعد الوعود التي أعطاهم إياها المحققون، أجمعوا أمرهم على فكرة واحدة تريحهم من عناء الزمن وجوع المكان.

جاء المساء ثقيلاً، يتبايعون في لحظة كالبرق ـ كما تبايعوا من قبل ـ على شراء مرآة كبيرة للفتى قصير القدمين، حتى يعود إلى مسلسله القديم، وحكايته الغريبة، دون أن يعترض أحد سبيله أو ينال منه. ثم قرّروا بعد ذلك تلقيبه "شكسبير" غرفتهم التي لم تعرف الملل إلا يوم تفجرت المرآة تاركة خلفها كل شيء دون طعم أولون.

السّجين :
وقف أمامها مبتسماً، بسط يده نحوها، تحسّسها، رأى فيها شبحاً مهولاً يشبهه، أدرك فيها بعضاً من ملامحه المترعة بحرمان قديم، تمتم:
– كأنني رأيت هذا الوجه من قبل.

نظر أمامه، فرك عينيه، تحسّس شعره فاقئاً عين الزمن، تقيّأ الذاكرة، حدّق في المرآة طويلاً، لكنّه لم يستطع أن يتمّ آخر أدواره، ليسقط مغشياً عليه، يترنّح في حلمه، وفي عينيه بقايا حكاية قديمة.

حذاءٌ لكلّ الطرق الملتوية

هجير يلفحني، قدماي في انهماك تام، أسير دون أن أبالي قيظ الأيام، وحذائي لا يتقطع. دربي طويل، أسلكه مع غبار الطريق، تراب يتعبق شذاه في شعري الذي أمسّده وأغسله للمرة الألف. ابتسم، أدندن بأغنية تجول بخاطري، أتأمل ظلّي ووعورة المكان ترهبني. أبحث عن عنواني الذي أقصده، أحدّق باللافتات دون أن أدرك مكاني، أشعر بالتيه، أفكّر بالعودة إلى مرتعي، لكن أملاً باهتاً يلوح فجأة في خاطري، أحدّق في الوجوه، المساكن، العالم من حولي، أدرك أن أمامي طرقاً كثيرة للوصول إلى مبتغاي، أسير وقدماي تتمزقان، ألفظ حمماً، لم أغيّر ذلك الحذاء، ولن أغيره أبداً. لم يعن لي أنه السبب في فشلي الأول أو الثاني، أتمتم وتراودني أطياف الذكرى: "أسيكون هو الفشل الأخير مع حذائي؟" وتصفعني الذكرى، حين ذهبت لأخطب في المرة الأولى، كان أصيل النهار يتألق كعذراء تنضح بالأنوثة، ووصلت، ولجت منزل الجيران والحذاء يؤرّقني، يؤلم قدمي التي لم تألف ذلك النوع من الأحذية أبداً، قبلته على مضض من زميلي الذي أهداني إياه قبل هروبه من مخيمنا إلى مدن أكثر جمالاً ورقّة، أخذته بدلاً من حذائي المهترئ ولبسته، ولم أخطب، غادرت المنزل فزعاً حين غاروا عليّ كقذيفة هائجة، أضحك، ما زلت أذكر الحذاء الأصفر والأحمر والكندرة ذات الكعب الطويل، الله ما أجملها من فلقة، أضحك بجنون ومن في الشارع يتأمّلون جنوني، كُسرت قدمي اليمنى، فتركت الحذاء والسير على رصيف الأيام فترة قصيرة، لتنتهي قصتي مع الجيران.

بالأمس ذهبت متيماً إلى رفيقتي في الجامعة كي أخطبها، نعم، كي أخطبها على سنة الله ورسوله الكريم، لم أكن وافر الحظ ولا اعتقد أني كذلك قط، ما يكفيني فقط عزيمتي التي ما زالت تلفحني، أطرق فكري، سأبحث، آه من زميلتي، سامحها الله، حين رأيتها

كانت تحاول قطع الشارع الممتد إلى الجامعة، سلّمت عليها، كنت اشعر بأنها تنفر مني. استعذت بالله من وساوس الشيطان وأقوال المرجفين، تحدثت إليها، أخبرتها بنيتي للزواج منها والحذاء لا يزال يطن في رأسي، يزلزلني بالألم، تبسمَت، ضحكَت ثم وافقت بأن أزورهم ثم تعيرني هناك الجواب. أضحك الآن حين أتذكر ما حدث، ضحك هستيري يتردد صداه في داخلي، وصلت جدران منزلهم الضخم وتمائم جدتي لا تزال عالقة في لساني، طرقت الباب مرات ومرات، لم يفتح لي أحد، فكرت أن اضرب الجرس، وفعلت، وليتني لم أفعل، خرج جميع إخوانها واحداً واحداً، بصقوا في وجهي، ضربوني، ثم طردوني وهم يشتمونني. كان كبيرهم القبيح يصرخ:

– أتريد أن تتزوجها يا ابن ال. . . . . .

ورذاذ الدم يتناثر من بين بقايا الأسنان، ثم ها أنا الآن أحاول من جديد ولم أيأس، لا أعلم إن كنت سأوفق هذه المرة أم لا؟ أشعر أن حذائي لن يخذلني، فتعاريج الممرات الضيقة التي لم أنسَها، وتهاويم وجهي تبشر بخير قادم، أنا لم أتألم اليوم كثيراً من حذائي، لكن العرق ما يسيء إليّ، فرائحتي نتنة جداً، سأحاول العثور على المكان، لا أعتقد أن عيني الباقية ستعجز معرفة سقف بيتهم والغرفة الواطئة، سأصل، نعم، سأصل بعزيمتي التي أبقت لي الكتف اليسرى وحيدة، سأبحث حتى أدرك قرينتي، نعم سيكون ذلك وسترون.

هواجس النهاية

خطوات تنبعث كإيقاع مع ريح هوجاء كللت سكون المكان بالأرق، أسير، أنظر أمامي والبيت يقبع كشبح هارب، يلاحقني، يصفع الهواء، قدماي تقودانني إلى حيث الصورة والريح تعزف خوفاً جبلياً لمطارید الظلام، ارتجافات تهزني، وجسدي يتشبث بترانيم تنبعث من فمي، لكن أسناني تصطك، فلا أستطيع أن أتم الكلام.. تبدو الغرف من بعيد مطفأة والشارع مهجوراً تعول فيه الريح، أتقدم، أقترب، غيوم تلتحم بأخرى على غرة من نسياني، أحدق بالأرض دون أن أرفع رأسي، فقط حين تصبح الخطوات عشراً لتتضح الصورة أكثر، والضباب يتجمع عند باب بيتهم، أتأمل الشارع، سكون أثير إلا من عواصف تنوء بحملها، أتدثر حزني، أتقدم والخطوة الأولى تذكرني بكل الخطوات الأُولى معها، حين جئنا وضحكنا. يومها لم نشبع من وجبات الحب، كان الجوع والظمأ يملآن جسدينا بتلك النشوة الغريبة، ضحكتُ حتى ضحكت، واستمر الوله يحفنا. الخطوة الثانية ومخيلتي تضج بضحكتها حين قبلتها للمرة الأولى ولم تكن قبلة واحدة فقط، الثالثة ورسائلي الباهتة تمتد لتصل كفيها، أوراق تنبت من مآقي العين حين يغرسها القلب، أكتب كل ما يراودني، يجول بخاطري فلا تسعه كل كلمات الكون واستمر، أواصل دربي في ظلام بات معي كظلي، تخطو القدم اليسرى ويداها تتوسدانني، تمزقانني تخترق كل عتبات الحب، وتدلف إلى قلبي، خطوة خامسة والماء ينساب رقراقاً من صنبور العين التي لم ترها منذ شهور، يبدأ المطر بالسقوط، وقذيفة تلو أخرى تبللني، تدك ملابسي حتى أغرق قبل أن أصل الخطوة السادسة، أتسمر في مكاني، أجرى كالأبله، لا أدري كيف أفعل، أنزوي في ركن من سيول المطر التي حملت معها شريطاً جديداً من ذكريات بعيدة، يوم أتيت أحملها معي إلى منزلنا وهناك، صعدنا على السطح، وظل المطر يتساقط، يغرقنا في حب لاهب، أذكرها

تقول (أحب المطر كحبك) وأنا أكرهه كما أكرهها الآن. لست أعلم هل حقيقة أكرهها، يقشعر بدني وأسناني تصطك من جديد، أحبها حتى أشعر بالدفء، أتقدم، ألهث، وخطوة سابعة تحملني كطيف أرفع به خطبة وإسورة من ذهب، ثامنة ووساوس تقتحم حياتنا، جحيم ينتظرنا، كلمات وهمهمات، كره وحقد، أتروى، أذكر ملامح الذكريات، خطوة تاسعة والوجوه تتغير، الملامح، تضاريس الحب، أساليب جديدة في تعامل آخر، أناس يغيرون في عيونها، شرر يتطاير منهما، والأذن تطن، تضج بألم، تصرخ كفى، والوساوس لا ترحمها، أصل نقطة النهاية، قلبي يضرب، يدفعني إلى اللهاث، يضرب بعنف، الخطوة العاشرة تؤلمني، ترهبني، كم هي مريعة في نفسي، أرتعش، والمطر يبللني، النعاس يدب في أوصالي، اليقظة تحطمني، أتصارع في داخلي، أصل الباب، لونه تغير كما الوجوه، ترتفع يدي لتصل جرس منزلهم، أرفعها بخفة والقلب يرتعش، أسقطها، ارفعها، أسقطها، أشعر بأنني لن أستطيع النظر في وجهها مرة أخرى، "إنني لا أحبك" والكلمة تطن في أذني، "ماذا فعلت كي تكرهيني؟" أغمض عينيّ، "لا أدري، ما أريده فقط أن تتركني" أشدّد على قبضتي، "أنا أكرهك، أكرهك،.. "أحاول أن أنسى، آه، أريد أن أنسى، أتمتم بأدعية وتمائم حتىٍ أنجو من خوفي، أضرب الجرس فيأتيني الجواب من أعلى متأففاً:

– من بالباب.

– أنا . . ..

لغط عنيف ينفجر في وجهي كالغبار، أحذية وأكوام من القمامة تتساقط على رأسي كالمطر.

– حيوان، انصرف، لا أريدك.

. . . وانصرف مدركاً أنها النهاية.

أسطورة الزمن الغائب

ظلمة كئيبة تعتري المكان، خُشُبٌ مسنّدةٌ تصطف كهيكل مترامي الأطراف، والغبار ينطفئ كما السراج. دوائر مقعرة تطمس صورة الجبل البعيد. لهب يغطي الأسقف المسرمدة. في الأسفل مقامع من حديد، يدخلها الرجلان بخفة – قد أكون أنا واحداً منهما – لا أدري بما ستؤول إليه الظروف، يسرق الأول السبائك المطرزة من الذهب والفضة والأقلام، يضعها في جدران الأرض الصماء والآخر يهربٍ فاراً من خوفه، يصعد إلى أعلى، وفي الأعلى يبدو المصلى كاحلاً، مدقع السواد، يجلس أحد المصلين على أريكة متهتكة الأطراف، يصلي جالساً أمامه تلك المروحة القديمة، البالية، التي تظلله، يتقدم شبحي نحوه، يمسك بالمروحة يضعها في نهاية الجدار، لكن الرجل يزجره بعنف صارخاً في وجهه:
– دعها هنا، فسآخذها إلى بيتي.

وينسحب الجسد – الذي قد يكون أنا – إلى الخارج في ظلمة باتت معي كظلي. هناك أرى العجوز يتكئ على شاطئ حزنه، أسود، قميئاً، يحدق بالسماء، ينظر تجاه بحر الغرب المميت، أهتف به كي يسمعني لكنه يبحر في دهاليز روحه، أهتف مرة أخرى لكنني قبل أن انتهي من صوتي أصطدم برعبي الذي يتملكني، أرى البحر يصرع المكان، الرجل، يهيج كتنور رأيته في طفولتي البائدة مع غبار الطريق، وكثور هائج أعدو تجاه الشرق، فإذا به أمواجٌ تتلاطم أكثر شدة من ذلك البحر المميت، أختفي، أصعد إلى أعلى المنزل الذي يصادفني، وهناك تصفعني المفاجأة، كأنه منزلي، بل هو منزلي فعلاً، أصعد وأمي تهرول كالريح العذراء، أما أبي فيحمل الصغير الذي أراه بصورة صاحبي، نعتلي السطح، والليل ترنيمة لم أرها من قبل، لوحة كالتي علقت في جُدر الكعبة قبل الفتح، نلهث، أهتف:
– أدركنا نهايتنا المريعة أخيراً.

لكن الرحمة تأتي من السماء. أتقدم، ألمس الماء بارداً يحاول عبور السطح، أما المدينة فتبدو غارقة في موتها، يعتليها الماء كرجل يغتصب عجوزا اندثرت مع رماد الزمن، السماء مدقعة السواد، شديدة الصفرة أيضاً، هكذا أراها الآن، أدندن بجنون:

– نجونا، لن نستطيع النزول إلى أسفل، أدركتنا مناجاة البارئ في عرشه.

أصرخ في صديقي الذي يصغرني سناً:

– ابتعد عن الأطراف كيلا تغرق البحر بحزنك.

أما أبي فيحضر متوشحاً وسم العجوز البائدة في أساطير المكان:

– جاء ميعاد الدفن، فلنزرع الأرض بأجساد قتلانا.

يصمت، يبكي، أمي تمشي على استحياء من عطفها، تتمتم:

– أخشى على ولدي وزوجته البتول.

تنظر إلى أسفل مرات ومرات، لا شيء سوى الموت في الأسفل، يصرخ أبي وقد غسل الدمع مقلتيه:

– لقد غدر بنا الشرق كما عاد وثمود.

يهلل الفتى رابعنا:

– يا أهل السماء، يا أهل الأرض....

جنون يعتمر لحاف رأسه، تهاويم تؤرقني أنا الذي ما زلت صامتاً حتى جنوني، تلهبني رؤية طلابي موتى في وحل الأرض، أرتعش حزناً، لا أقدر على تصور المشهد، بكائية مطولة تتهادى إلى مسامعنا في الأعالي قرب السماء، يصرخ الفتى مرة أخرى:

– إذا السماء انشقت وأذنت لربها وحُقت . . .

مشهد يحتوي أربعتنا الآن، نفكر بالقرار الأخير وتتهاوى في الذاكرة صور الأطفال الذين تركناهم في قيعان الأرض المباركة، نهذي على ذاكرة للموت وأبي يشدو بلوثة جنونه الوارفة:

– فلنكن جميعاً في قارب واحد.

تحدق أمي في وجهه، كأنها تفهم ما يقصده، تسأله:

– ومن سيدفن أبناءنا في بسيطتنا الرحيبة؟

تتابع:

– لن أموت حتى أراهم يغرقون في تراب الأرض.

تصمت، تبكي، تنتحب كعجوز أدركتها المائة الأخيرة من أعوام القحط، تستمر في النحيب، تولول، تندب حظها من ذلك الزمن، تخلع نعليها، تمزق ملابسها وتغفو في حزنها، أتقدم مسرعاً، ألهث حتى أدرك جسدها الشفاف، أغطيها بدمعي. بقينا ثلاثة الآن، لقد ماتت على أعتاب حزنها، وأبي يصرخ بجنون:
– علينا أن نموت جميعاً.

أرتعش، تؤرقني الفكرة، هل سأموت؟ أُطرق فكري " وكيف لي أن أقنع الصغير صديقي؟ " لكنني قبل أن أنتهي من هذياني يأتيني صوته:
– فلنلقِ بالجثة في الماء ثم نسقط كالذباب في حديقة الأرجوان.

أبتسم، وأبي يبكي بحنق، نغمض ذاكرتنا، نتقيأ الماضي الأليم، ونلقي بالأجساد في وحل الماء، ثم أموت، أندثر كما الزمن القديم، هكذا أظن لأنني لا أعرف شيئاً بعد الآن.

سهواً، كل ما جرى

سهواً فتحت ألبوم الصور، تلك الصور التي جمعتني بأصدقائي هناك، بالرفاق الذين مازحتهم طيلة شهر بأكمله، وسهرت معهم الليل كله. ودون قصد رأيتني في بلدة بعيدة، تائهاً تغازلني فتاة لم يظهر وجهها جيداً في الصورة. كانت تحدق بوجهي الشاحب، ترمقني بعنف. تتناول وردة أقحوان من أنهار حدائقها المتوردة. تلقيها بجواري. تبتسم. تغمض عينيها وسرب المشاهد يلوح كطيف في زقاق موتي. أرسل ابتسامة شاحبة عبر رسائل الهواء المنغلقة. ترتسم علائم اختلاج الوجه في تسمرها. مشيتها. تقبل إليّ متعثرة بهمساتها، وعندما تصل أطراف أذني الصماء، تهتف: " أيها المجنون ". ثم تمضي. تغور في عمق الزمان القديم. تسافر مع الضباب. تطير بعيداً عن رائحتي المطبقة على أحلام هذت بحكايا الذاكرة الميتة.

دون قصد رأيت وجهها ناعماً، طرياً كشعر أمي، يجري من خلفي. يحتضنني قبل أن يلتقط صديقي صورة لي. فلا يحالفها الحظ بظهور معالم جسدها البض وهي تعانقني. كانت تركض كقطار يوشك على افتراس أديم الأرض. أشارت بإحدى يديها. أومأت برأسها كحركات تناغم مائعة. ظننتها تشير إلى رجل خلفي، لكنها وصلتني. أدركت جسدي الشفاف، عانقتني، هذرت بكلماتها التي أذابتني مع الصورة. تحركت شفتاها الحمراوان، قالت: " sorry " ثم اجتازت سباق المسافات الطويلة. أشاحت مع عبرات الدمع المترقرق في أنفاس غربتي القاحلة. طافت حول اللامكان، ثم اختفت. ابتسمت وقتما غادرتني راجية بزوغ الوجه في لوحة الاشتياق. أذكر أني غضبت يومها من صديقي الذي أعطاني الصورة دون أن يخبرني بأنها كانت تجري من خلفي لتصل إلى عنقي. غضبت أيضاً لعدم نجاحه في التقاط الحدث جيداً، نسيتها، نسيت وجهها، لم أعد أذكر منه سوى وجنتيها الحمراوين عندما كانت تضحك، ثورة من الضحك تتفجر حتى تظهر الدموع.

دون قصد رأيت في ألبوم ذكرياتي فتاة كانت معي من مدينتي الضيقة تجلس بجواري على أحد مقاعد الطائرة، تضع يدها بحنو على رأسي، تربت على كتفي ثم تبتسم ابتسامة غريبة تغرقني في عالمي القديم. تغمض جفنيها. تسدل شعرها على كتفيها والمقعد يهتز مع عواصف الريح. تفصل بيننا يد الكرسي الممتدة في الوسط. أنظر إليها. أحدق فيها. أترنم بأيامنا التائهة في نبض المخيم. تبكي. دموع تنزلق من مقلتيها الرائعتين.

دون قصد تذكرتهم جميعاً، واحداً تلو الآخر، لكنها فقط التي استثارتني، أعادتني إلى الوراء بعيداً عن غرفتي الميتة، كانت جميلة كحبي لبحر الضوء الذي هذت معه أحلامي على شاطئ النجاة، عيناها زرقاوان، شعرها صبغ بحناء تناسقت مع بقايا الجسد. وجهها لم تخل منه ابتسامة الروح سوى عندما يشدو المذياع بأخباره القاتمة. يوماً وصفتها بقصائدي ثم أهديتها أوراق شجوني. أذكرها عندما ضحكت. غارت والابتسامة لا تزال تطل من شفق الصورة. أخبرتني بأنني شاعر أجيد العزف على أوتار الكلمات، ثم قبلّتني. عرضت عليّ الزواج بعدها دون حياء. لست أدري إن كانت تقول ذلك مازحة أم أنها حقاً كانت تعي ذلك. لحظتها فرحت. شدوت بأبيات من لوثة خارطتي. تمنيت ذلك كثيراً. لم أصدق ما كانت تقوله. حلمت بعدها لأسابيع طوال بذلك الزفاف العائم على وجه الأرض. قالت: " تزوجني " ولم أتزوجها. بقيت معها شهراً كعام، كألف عام. طفنا خيام حكايتنا. سعينا للخروج من وطأة الجوع لمرافئ الشوق. " تزوجني ". شاهت وجوهنا من غبار المطر المتناثر في قلوبنا، قمم سواحلنا، وعلى شواطئ البعيد لم أتزوجها. سَرت الشائعات بقايا الوطن القاطن في أرواحنا. في إل" جيست هاوس " رفعوا شعار انطلاقنا إلى صفعات المكان. ترنموا بخطبتنا الهلامية. علم الجميع بذلك ثم غادروا مثلها في نجوم الانهيار. ابتعدوا، طافوا حول أنفسهم، سافروا ولم يعد أحد منا يذكر وجه الآخر. كل هذا عاد دفقه واحدة مع ذلك الألبوم الذي فتحته سهواً عند عودتي من جامعتي البعيدة، حين حسمت أمري

على إتمام دراستي في جامعة المخيم. لم يطردنا أحد كما أشيع هناك، لم أستطع ترك أمي، أخواتي، كنت كفيلهم الوحيد في بقعة الضوء الباهتة. أتيت ونسيت دراستي هناك. اتجهت إلى تخصص آخر، تركت أحلامي ممدّدة على سرير الانطفاء. درست الأدب الإنجليزي. كنت أريد الأدب الآخر، الفن الآخر، العالم الآخر. هناك فكرت بعالم الرواية الوارف في دهاليز كلياتهم، أتيت هنا وأغلقت الجامعات، إضراب، إغلاق، حظر التجوال، ممنوع الدخول، الجنوب مغلق، جنوب الكرة المتلبدة بنزوات الانشطار، محاصر بيني وظلي، الدقائق غائبة في ردهات التفتيش، نقاط سوداء، خضراء. " العدو يحاصرنا " . لا يحق لنا الولوج بوابة الآن. يصرخ الجند " كونوا كما أنتم. ولا تكونوا سواكم " . يفتشون سياراتنا. أجسادنا. ملامحنا. يتهمون آخرين بالعداء لدولتهم. يأخذونهم. يرحبون بهم. يصفعونهم. يقتلونهم. والجامعة تنبسط في امتداد السكون، نهدر كالبركان في تلابيب وشايانا. اعتقلوني لحظتها. أطرقوا رأس الآخرين بالتحقيق، ولا أدرس سوى أدب الانحراف. أعود وليتني ما عدت. أهذي في أحلامي، ألوك الصمت، أرى صورهم تتهاوى مع ملامحهم، أغفو على تلاوات العودة الباهتة.

دون قصد تهادت إلى مسامعي رسالة حب ترنمتُ بها ذات مساء قارس مع هذا الألبوم الذي لم أشتره قط. كنت قد حصلت عليه بعد أن عادت من زيارة لأخيها القابع منذ سنين الجدب في بلاد الثلج. حصل على منحة دراسية من جامعة المدينة، ليذهب وفي عينيه كل أحزان المخيم. حدثتني بأصدقائه الذين استشهدوا أمام ناظريه ليتجرع الفاجعة. نام ولم يصحُ استيقظ شخصاً آخر. عالم بلا وجه. لم يتحدث. صمتٌ مدقع انبرت بها شفاهه. لهاث كجريان الدم في تلابيب الجسد، دون حديث. حزنت مثلها، مثله. عرفته يومها من صورة شاحبة تحملها. رأيته قبلاً ولم أكن أعرف أنه أخوها. رأيته على شاشات التلفاز مجروحاً. صامتاً. أمامه الأجساد التي تلونت بالأحمر القاني. عزف يحدو سلام الروح. وطن بلا وطن. صور مبقعة. قابعة في حلكة الإطار. يموت ولا يموت. يغادر دون

أن تتغير. اتصل بهم كما أخبرتني. كان حديثاً دامساً كليل المخيم. بعد عام تغير تماماً. أصبح زهداً هناك. هذت لي بأنه غلاء المعيشة. لكن المفاجأة أطاحت بجسدها وقتما بعث لها بلوحة وجهه القاحلة. أضحى شيخاً هرماً كأنه اجتاز السبعين من عمره. لحظتها بكت. صرخت وبكت. جلست القرفصاء. نامت على ذراعي، ولم تصحُ سوى مع هزيع ليلنا الأخير.

دون قصد وقعت ورقة صغيرة من بين تلك الصور، كُتب خلفها بخط واضح " انتظر نحن هنا ". لتضج بداخلي صورتها التي أشعرتني بألم شديد تربع في أوصالي بعد فراقها، يوم أن عادت إلى المخيم ونسيت رحلتنا كلها حتى أنا. لم أكن أتوقع أنها ستنساني يوماً. تواعدنا أن يهاتف كلانا روحه. افترقنا دون اتصال. صوتها عادني مرة أخرى. كان رفيعاً وكان جميلاً، أذكره عندما غنت لي. لا، لم تكن تغني، بل قرأت قصيدة، أذكرها، وكيف لا أذكرها. تلك التي كتبها شاعرٌ كنا نحبه كثيراً. عندما كنت صغيراً وجميلاً / كانت الوردة داري.... لا أحفظها جيداً، لكنها قرأتها وكأنها تعيشها، تخترق سطور الكتاب بني اللون، تجلس في طياته الحانية. لا أدري كيف حصلت عليه؟ لم أرها تحمله قبلاً. جاءت به. ظننته كتاباً أجنبياً. فتحته. شقت سطوره. تناهت الصفحات. تتابعت. دلفت مآسيه القاصرة. ترنمت بجملتها الأولى. كلماتها التي خرجت حتى فاحت من أسنانها رائحة المسك. ظننتها تعطر شدقيها. تصبغ أطراف فمها. قالت وتجلجلت. سرحت محلقة في عنفوان صباحها. كلمة أولى والشعر يمسي ليلاً. يختفي القمر في سحب الغرق البعيدة. درويش يعلو في سمائنا. ينادي. ينفجر. أنا هنا / وهنا أنا . . . تهذي. "نحن لسنا هنا. ولا هنا، هنا ". تطفو على سطح قصيدتها قصيدة. يا سرَ الغريبة أنت. تضج بداخلها حرائق الدخان. ليل أسود. عندما كنت صغيراً . . . لم نعد صغاراً. ليتنا بقينا. حلم يراودنا. وكبيراً. أصبحنا. أمسينا. رحلة بين الصغر والكبر. بين المرض والمرض. تسافر في نظمها. ترنيمتها شاحبة. تصدح والجميع يلتف حولنا. نصبح قيثارة. نتحلق كأسراب

طيور مهاجرة. دمع يتفجر مع صوت لا يعي وشاح عالمه. كانت الوردة، تصمت، تتحدث: " ليس هناك ورد. آه، إنها هنا ". كانت داري، لم نسكن الورد، درويش اختلط بكرومه، ذاق مرارة الريح. الوردة ندوسها. دارنا تهدمت. أعاصير الذباب هاجت في سقفها. جرّافات أسقطتها في مقبرة جماعية كحبات البرتقال. ماتت ولم تكن لنا دار.

دون قصد ولا أدري كيف جرى ما جرى، رأيتني بينهم في تلك الحكايا التي مضى عليها زمن طويل بين دفات هذا الألبوم القديم. رأيتني في إحدى الصور معها عندما كنا في مدينة " كولون " التي حملت معها تضاريس حياتي الرائعة. تعلقت في ثنايا ذاكرتي المثقوبة. آه يا مدينة الريح. تركتها تذهب من هناك إلى فرنسا وأنا عدت. خشيت إهدار المال، ثم بعدها عادت فقررتُ السفر. وفي المدينة انتظرنا الباص الذي لم يأت. وقفنا أنا وأربعة من أشباحي. كنا قد صعدنا القطار دون أن نقطع تذاكر الذهاب والإياب. جُزينا سوءاً. لم يعد القطار ولم يأت جودو. انتظرناه. انتظرنا الريح تلفَحنا. عدنا تقودنا إحدى العربات المتهالكة على صفعات الزمن. دفعنا أموالاً طائلة. كنا نخاف النوم خارج خيامنا. سفوحنا. عدنا وكان الليل يركبنا. نمنا ثم تراءت في أحلامنا مدن شاسعة تضمنا.

دون قصد رأيتها وهي تحمل كوباً من الماء تسكبه في ظهري. وقفت ورائي. ابتسمت لصديقاتها ثم أمطرتني بوابل عطرها. وشحتني بغرق يناير اللاهب. كان ذلك قبل أعوام، يومٍ أن قررنا أن نغادر إلى ثكنتنا، خيمتنا الأولى. كنت مسروراً جداً، غير أنها كانت عكس ذلك تماماً، حدثتني بأنها لا تريد العودة إلى المخيم. أخبرتها بالقدر المتربص بنا دائماً، هزجت لها بالصبر عند حقيقة المعركة، توردت وجنتيها حين أشرت لها بإيماءة من رأسي. أدركت ما تعيه. فهمت ما يحيطني. كانت تقول " تزوجني " ولم أتزوجها. ظنّت أنني سأعود لأخطفها على حصاني الموشح بالسواد من بين أبناء عشيرتها، قبيلتها التي لم أتشرف بمعرفتها أو السؤال عنها.

عدنا ولم أخطفها. بقيت زاهداً مثل أخيها. لم أستطع إعالةَ أسرتي، مات أبي الذي لم نعرف له أخاً قط. تركني وحيداً في منزل ضيق. سبعة أخوات قاصرات. هزيلات. لم أشأ أن أخاطب أمي بما كان يجول في رأسي. يكفي ثمانية. لا أريد التاسعة إلى الأبد. اليوم غيرت مبدئي، شكوكي. أصبحت أعمل. عمل ضئيل لكنه يقيني برد التسول، رائحة الشوق غمرت سقفنا، خيامنا، في انتظار إتمام ضريح المنزل.

دون قصد وقعت بين يديّ صور كانت مبعثرة بعضها يبتسم وبعضها يشكو ألما، جمعت تلك الصور بعد هذه الذكريات التي تشبه المستحيل مع أصدقائي، كانوا يلبسون أحذية غريبة بينما تنتصب هي بينهم بوقفة كتلك التي يفعلها "شابلن" دائماً في أفلامه القصيرة. شاهدنا هناك أفلامه جميعها. كانت تظنه ألمانياً كما أنا. فوجئنا عندما أخبرونا بأنه من المملكة العظمى. ضحكت، ضحكنا ولم ننسَ حكايتنا.

دون قصد رأيت هذا المكان البعيد عن خريطة العالم. رذاذ خفيف يسقط ثم يهيج ليصبح قيثارة مطر تتبدد في خيامنا حتى تغرقها في وحل الطين. كان الموقع داخل الريف الغربي المتورد لمدينة (ليفركوزن)، تذكرتها كما تذكرت معسكرنا الذي مكثنا فيه أسبوعين كاملين. هناك في تلك المدينة الضيقة استحممنا على ضوء بحيرات الرماد. أظمأتنا نيران الثلج. تصارعنا في بحر مياهنا.

دون قصد وجدتني يومها قد ذهبت إلى تلك البلدة البعيدة وزرت متحفها الضخم "التاريخ الألماني" وفي إحدى الليالي الغابرة اقتحمت المكان، خلعت قبعتي وسرت تجاه زميلتي التي تشبثت بجسدي ساعة أن رأتني. أخبرتني بأنها تشم عطر الحرب. كل شيء لا يزال طازجاً، التراب الذي تخثر في الوجوه. صور قديمة لفنانين اشتركوا لمنع الحرب خلال لوحاتهم الباهتة، الميتة. سرت بمحاذاة أحد الأبواب لسجن بني أثناء الحرب العالمية الثانية مترنماً بإنجاز الدولة التي أعادت مجدها رغم هذا الدمار.

"يا لهذا الخطأ الممتع كم أعطاني من اللذة والنشوة ما يكفي لعشرات السنين" قادني إلى الوراء شهوراً تقدمت صارعتني، أطاحت بالوجه البائس. أنستني رحلتي القصيرة حتى وجه زميلتي العذب. نسيته، أضحت معالمها خفية عني، صوتها أيضاً، تمنيت أن اسمعه. أعاود سرد تلك القصيدة لأتذكرها. لكن سكون الغرفة يتحطم فجأة أمام رنين الهاتف الذي يقطع شريط ذكرياتي ليأتيني من خلفه أثير صوتها المحموم.

ترانيم الخوف

... وأنت تيمم مبحراً صوب البعيد، متجهاً نحو مدينة بيت لحم، تنحني بك الأرض غرباً حيث تبدأ في انحدارها التدريجي. تستنشق خلالها شذا رائحتك، دمك المتخثر على الأرض اليابسة، الجدران المحطمة، الأبنية المدمرة، الأزقة المنهكة من موجات الخوف وتعاريج الظلام.

شعور غريب يحاصرك، يفرض نفسه عليك بقوة "هذه المدينة تنزلق في أغوار سحيقة، دون أن تبالي بكل ما يجري في الداخل".
وعندما تهب موجة الحر في وجهك تصهدك، تملأك رائحة العرق. لتسير بكل قوة أُتيتها، تركض متثاقلاً، تهرب كالريح من عواصف الموت. تقع متعثراً على وجهك حتى تكاد تلامس جبهتك التراب. تختنق، تموت، تتوسد الرمل، بينما تبدأ تباشير الفجر بالبزوغ والانتشار في فضاء الكنيسة المدمرة.

*****

إنه الظلام.. مرة أخرى!!
هزيع الليل الأخير يحل قريباً من دارك، يطرق أبوابه، الثالثة صباحاً. مطر خفيف وأصوات طلقات تقترب كلما بدأ الاقتراب. الجميع يركض متوجساً. "البندقية بيد والحلم بيد أخرى". تقفز خائفاً مع الجند وسط الدهليز المظلم، تسير متردداً، حائراً، تطفئ بطاريتك الشاحبة حتى تصل نهاية الممر الضيق. حينها يواجهك الموقع مدقعاً كطيفك، ينتصب أمامك باهتاً. تقف أمام الكنيسة شارداً تلوح في أفق المكان. صوت قائد الكتيبة قوياً، صارماً:
– سيروا على أطراف أقدامكم بحذر، لا تطلقوا النار إلا عند الضرورة القصوى.
متابعاً باهتمام:
– معلوماتنا تؤكد أنهم حاصروا الكنيسة بالأمس وأقاموا

جميع تحصيناتهم قريباً منها.
. . . وأنت تركض تجاه الكنيسة كعاصفة الثلج تراها أمامك دون أن ترى شيئاً، كل ما حولك فراغ. ظلام كثيف لا يبدده إلا لمعان الدوشكا في الأعالي قرب السماء. تطير مسافراً مع الريح، والمطر خفيف ينزلق بين يديك وأخمص البندقية. تواجهك تعاريج العطش، الدهاليز الضيقة تتلوى وتميل، بجوارها يرتطم الحجر بالحجر، الجدار بالجدار، وأصوات القذائف ترتطم بالأجساد. بين الرؤية والبحر صورة أمك الضعيفة، الحانقة كعجوز أزمان الجوع. بين الحلم والواقع، جثث ملقاة على قارعة الطريق. الأحلام تترنح أمام زقاقك. القذائف تطير، ترتطم بالأبنية الصغيرة، الواطئة، وأريج الثكنة ما يزال يزكم أنفك. بين غبار القصف والقذائف كانت الرصاصات تهجر مخازنها لتعلن جولة جديدة من معركة البقاء. الطلقات تئزّ في الفضاء. تركض وحدك، تتهاوي على الرصيف، تصل إلى أول موقع، تتقدم، موج الغبار والأصوات يلفك. مجموعة من اللحظات، اختلط فيها الله أكبر بخشخشة الثياب على الأجساد. بعد فترة قصيرة يتوقف كل شيء، أنت وخالد في ساحة المعركة، استشهد خالد وبقيت أنت، لم يكن الحزن، لكنه كان شيئاً آخر.

*****

إنه الظلام.. مرة أخرى!
الرجال يدخلون الكنيسة بحذر متوجسين، يسيرون ببطء خشية عبور الطلقات إلى خوذاتهم البالية. ينتشرون في فضاء القاعة. تقفز المجموعة الأولى من النافذة، أربع دقائق من الصمت حيث تنقطع الأنفاس. يتشنج الإصبع على الزناد. المجموعة الثانية تقفز. ظلام ينتشر ثم يتقدم الجميع، يستعدون لضرب الرصاصات، يسحب أحدهم أجزاء سلاحه، يبدأ بالقنص، يستمر بينما يضع آخر إصبعه على الزناد، تضرب الدوشكا، البندقية، الدبابة، الطائرة ليلتحموا جميعاً في وطيس لا ينتهي.

بين الكنيسة المحطمة وساحتها القديمة حيث المواقع الأمامية كانت اللحظات تتداخل، تحولت الكنيسة إلى موقع. بقيت أنت فيها وأصبحت مكان نومك. ساحة كبيرة، جدران سميكة، برد وذكريات. وفي النهارات الطويلة تجلس بين جدرانها أو حول النوافذ، تغفو على تلاوة الذكرى المفقودة.

. . . وأنت تجلس في إحدى المقاعد متهتكة الجوانب، تخترق مخيلتك صور كثيرة مضت، بقايا أهازيج ترنمت بها جدتك قبل أن تموت. نظرات والديك، حلم أخواتك، رائحة مخيمك الذي يطغى عليه عطر البحر، سيمفونية القحط في بيتك، خروجك للعمل عسكرياً براتب زهيد من أجل لقمة بقائك، وجه صديقك خالد الذي يقبع في وجدانك، لا يفارقك.. الدم، الرصاص، القنبلة، الموت.

بهدوء تنسحب إلى هذا الركن بعدما عبرتك صورته دون إذن بالدخول. الذاكرة تقبع في شقٍّ من زوايا المكان، تطفو على السطح. يظهر وجهه الجميل، شعره المسترسل، الناعم. ينشر شبقه في أنفك، تزكمك الرائحة، تلهب أنفاسك، تشتعل والليل يتسلل إلى عينيك القائظتين من حر الجوع، الخوف، البكاء الذي تركته ينساب رقراقاً على وجنتيك الملتهبتين. صوته لا يفارقك. تترنم مع لحنه البعيد حيث الخيمة الممزقة التي هجرتك.

... وأنت تجلس قرب الأيقونة التي وضعتم بجوارها الطعام للجند. تتذكر الدماء، دمه كان ينزف، حاولت جهدك أن تمنعه من التسلل، لم تستطع. تركته يموت بسهولة، تبلل وجهك بالدم الحار، وجسده يمتد بين يديك إلى نهاية العالم. كنت تركض بين القذائف والانفجارات، ثم وضعته إلى جانبك، جلست وتحدثت معه. كان دافئاً كالكستناء، طرياً كجسدك، طفل تداعب وجهه الريح ولا يبكي. حملته ثانية، تركته يتوسد حجرك، مسحت بيديك شعره الناعم. كانت تحسده عليه كل بنات المدينة الضيقة. صورته تئن في جسدك، تمنعك من الطعام، من نفسك، تلتهم النوم من عينيك.

الجميع غارق في بحر الحلم وأنت تجلس القرفصاء بعيداً عنهم، كأنك لست منهم، أثقلت على نفسك، هجرت روحك زمن الجبن، لم تعد سوى لحظة المعركة، كم معركة هي؟! لا تدري وبيت لحم لا تزال تضطرب، تتضرج بالدماء، تدفعك بأن تضرب رصاصاتك القليلة صوب الأعداء. كم من الليالي أرقتك، تركتك تغادر إلى الأفق الشاحب، القصي. بقيت متصوفاً تذهب إلى البعيد، البعيد. وجسدك ممددٌ على الأرض بلا حصير. كل ذلك يمر بين عينيك، تعاودك رائحة بيتك، غرفتك الضيقة، الواطئة. يوم أن عرضت عليك أمك بأن تشتري لك سريراً يعرضه أحد الباعة في سوق المخيم، لترفض أنت، من أين لك المال؟! تمتعض أمك، تبكي، تحث الخطى والدمع يذكرك بأنفاسها، عينيها الباهتتين، هيئتها القاحلة كتضاريس المأساة، أنفها المعقوف، شعرها الخشن من تلابيب الزمن الحائر، يديها المريضتين. تركت الثكنة من أجلها لتأتي هنا حيث الألم، الرعب، الأرق الذي ينغص عليك تفكيرك. أتيت لتحضر بعض المال بعدما حلت اللعنة عليك، أصيب أبوك بمرض عضال، خسرت في علاجه كل ما ادخرته، ثم بعدها مات، ضاع، وذهب كل شيء مع الريح. والآن تحاول ستر نفسك بهذا العمل، تركت جامعتك، مخيمك، منزلك، أمك، أخواتك اللواتي تركنك والدموع ترسم حكايتهن، بعثت لهن برسالة وضعت فيها كل راتبك، لم تخذل أمك، أرسلت لها فستاناً جميلاً، ذاك الذي أهدته إليك (ديما)، زميلتك التي أحبتك. رأيتها صدفةً في الجامعة هناك. كنت قاصداً لتسجيل اسمك وإتمام دراستك المعقدة، أردت أن تحقق حلماً لا يزال يراودك. كنت نهماً في القراءة. لوحة الملح تطرق شقاً من رأسك، أرق الجوع التهمك، منعك من ذلك، بعت جميع كتبك وأتيت، ثم هنا أردت أن تعيد الكرة مرة أخرى. وذهبت. هنا رأيتها كشبح مخيمك، كانت ترتدي منديلاً منمقاً. تميزت عنهن أمامك، نظرت إليها، اخترقت عيناك تضاريس جسدها القاحل، تقدمت إليك. عرفتك بنفسها، أخبرتك بأنها تدرس الأدب الإنجليزي في الجامعة. وبعد أسبوع طلبت منها الزواج، حينها بكت ولم تعرف لماذا بكت. بكيت أنت أيضاً. ليلتها أوصلتها حتى الطريق العام لمنزلهم، ظننت

أنها تسكن مع عائلة كبيرة. لم تكن هي قد حدثتك بشيء، وحين وصلتم، دعتك إلى بيتها، ولجت غرفتها التائهة في جرحك، جلست معها ثم جعلتك تتحدث، استمعت إليك بكل جوارحها، تورمت عيناها بسببك. بكت، نهر من الدموع انهال تحت قدميك وأنت تتحدث، لم تعرها أي اهتمام، بقيت تتحدث، تخرج من جوفك الكلمات، بانت رائحة أسنانك، ظهر لونها الأصفر، وأنت تروي بقايا حكايتك الأليمة، تهيم على نفسك من العطش والشوق لتراب المخيم، رائحة بحره، سمائه، ردهاته الضيقة. ترسل (ديما) في طلب الماء لك، تفتح غرفتها، تذكرها، كان لها طعم حلوٍ، رطب. ليس كما في غرفتك. أعارتك فرشاة أسنان، أهدتك عطراً غالي الثمن اشترته من إحدى البلاد البعيدة يوم أن خرجت سائحة تهيم على وجهها من الشوق والحنين إلى المرافئ القديمة. بدأت بدورها الحديث إليك. أخبرتك عن أمها التي سافرت في قطار الموت مع إحدى الرصاصات التي طوحت بها قبل عام. حدثتك عن أخويها اللذين تركا المدينة فارين إلى ألمانيا لإتمام دراستهما هناك. هذت عن أبيها الذي لم تره سوى في صورة قديمة معلقة أعلى الباب متهتكة الأطراف. صوتها كان ناعماً ينفث فيك رائحتها، شبقها. أججت مشاعرك، لست وحدك من يشكو في هذا العالم.. التبست عليك الأشياء، اختلطت ببعضها، اضطربت مخيلتك، تشوشت أفكارك.. (ديما)، (خالد)، أمك، أبوك، فرشاة الأسنان، الغرفة وردية اللون. كل ذلك لا يزال بريقه يلمع في عينيك، وأنت تقبع في ذلك الركن القصي عن رفاقك، إخوانك، صور كثيرة تتهاوى داخلك، تحلم، تستيقظ، لا تدري، بين هذا وذاك، تغمض جفنيك، تداعب حلمك، ترى فيما يرى النائمٍ جسد خالد قبل أن يموت، يتوسد حجرك، دافئاً كالكستناء، ناعماً كجسدك، طفل تداعب وجهه الريح ولا يبكي، تمسح بيدك وجهه، تمسّد شعره. صوته يدعوك، يلجمك، يرجوك أن تعمل بوصاياه، ألا تترك أخته للمجهول، حائر أنت الآن. كيف تفعل؟! أتترك (ديما) من أجل شقيقته (نوال) أم ماذا؟ أخته الوحيدة التي طالما حدثك عنها، جمالها، أخلاقها، كل مضغة فيها، لم يبقَ سواها له، لك، بعد أن دمر اليهود منزلهم في جنين، هي وذلك الدفتر، مذكراته

التي أطلعك عليها، أحببتها كثيراً وأنت تعيشها، هناك من يتحدث بلسانك. غزة تعلن الانفجار، والانفجار أكبر من ثورة. التاريخ لن يغفل ذلك أبداً. فالأزقة تعج بمناضلين لحماية بحر الوطن الدامس، لكن هناك سؤال يفرض نفسه علينا بقوة: هل يفرض شعبنا المزق رؤاه على المرحلة القادمة، وهل مصطلح الانتفاضة كاف للدلالة على مشهد الأمة العظيم؟! أسئلة إجاباتها في بطن الأيامً الحبلى بالمزيد . . . كأنه أنت من يقول ذلك، تقرأ و(نوال) تحضر في ذلك الدفتر، لها نصيب كبير فيه، تتأملها من خلال كلماته، لم ترها من قبل، لم تسمع صوتها، تظنها مثل (ديما)، الرائحة نفسها، الصورة، تحاول أن تضع عن كاهلك هذا الحِمل الثقيل، أن تخلد للنوم، لكن شبق الذكرى يتعثر في أنفاسك، تغمض مقلتيك، تهمس إلى نفسك بتأفف:

– المكان محاصر

تحاول أن تنام والانفجارات تشتعل، تئن، الهزيع الأخير من الليل يطل برأسه نحوك، الجميع يسبح في نهر النوم وأنت تجلس القرفصاء بعيداً، هجرت ترانيم الخوف، تغفو، تنام، تحلم، تهذي بصوت مرتفع، تتمتم لخالد الذي يتراءى لك، تبكي، تنوح ردهات مدمرة. ومع أهزوجة الصباح تستيقظ محملاً بالغبار والطين الذي تساقط عليك أثناء قصف القاعة القديمة.

*****

إنه الظلام.. مرة أخرى!

وأنت تجلس في إحدى زوايا المكان، تحاصرك رائحة الكنيسة، يعاودك أريج الموت، يستقر بصرك على الأيقونة المنتصبة أعلى الجدار الملطخ بالدم، تسيل دمعة واحدة، تنزلق ببطء على خدك، وتتخذ مسارها في أخدود اتصال الأنف بالوجه، تستقر على خط تلامس الشفتين بالروح، تغمض جفنيك، تداعب حلمك، تحاول أن تصل إلى نهاية لأمرك، ثلاثون يوماً وأنت عاجز عن الحراك، تقرر الانخراط بالجمع، أن تكون جزءاً من ذلك الجسد.

تخلع عنك الكسل، تهم بالنهوض، تتقدم، يفاجئك صوت قوي يؤلمك، تسحقك ضربة من خلفك، تخترق رصاصة جسدك، تطوح بك، تطحنك، تسبل جفنيك، تستحلب ريقك، تبكي، تضحك، يعاودك شريط الذكريات سريعاً، يمر أمام عينيك، تظهر صورة ميلادك الأول، أسبوعك، شهرك، عامك، تبزغ صورة خالد أمامك، يشير إليك بالاقتراب، التقدم، يمسك بيديك، يتعلق بتلابيبك، تشم رائحة (ديما)، أمها، أمك، أبيك، تتراءى أمام ناظريك صور شتى، طيور تغرد، بلابل تصدح، نساء جميلات، زغاريد، تكبير، تلاوات من القرآن. "يا أيتها النفس المطمئنة.."، الجميع ملتف حولك، يسحبونك إلى مكان آخر، تتركهم، تمدد جسدك، تتوسد الأرض الصلبة، اليابسة، المتجمدة. تحلم، تنام، ينطفئ النور من عينيك، يختفي القمر وراء سحبك، ينجلي ضبابك، فتغرق في موتك.

وداع أخير

تدفَقت في شراييني موجات من الهلع حين أبصرت عينيك المسكونتين بالرعب ووجهك المغمور بنافورة من دم. كنت تتلمس طريقك بين أشجار البرتقال وقد أنهكك الإعياء، تقتلع قدميك من لُجة الرمل بصعوبة بالغة. وقفت أمامك وقد أذهلتني الفاجعة، طوحت بي، تأملتك سارحاً في شجوني، كنت غارقاً بالدم، سألتك:

– من أين تتدفق هذه الدماء؟

– . . . . . .

– هل أطلقوا كل هذا الرصاص عليك؟

– . . . . . .

لم تعرني أي اهتمام، ظللت تمشي، تزحف حتى توسدت الرمل، خرج الزبد من شدقيك، وبصعوبة بالغة استطعت أن أحملك على كتفي الهزيلة. كان الدم ينفر من جسدك كقنبلة اتسعت شظاياها حد الانفجار، وفي وطأة الصمت العميق خرج صوتك تائهاً مع انفراجات الريح:

– أرجوك، دعني هنا .

بدأت أصوات الصواريخ تئن خارج المكان، خرجت الطلقات جافة تلعلع في سماء لازوردية باهتة. أغمضت عينيك، شعرت بك وكأنك تريد أن تهذي، تحلم. لم أشأ أن أتركك، كنت خائفاً عليك، خشيت على نفسي أيضاً. كان الجنود خارج المزرعة يتخبطون في حنقهم، يفترشون الأرض بظلهم الثقيل. حدقت في القمر المتسع حدود الأرض، تأملته، رأيت شبح وجهك في انبساطاته المشعة، دعوت ما قدّر لي، تلوت آيات من الرقية حفظتها عن جدتي، جلست بجوارك دون أن أنبس ببنت شفة، سكون عميق كبحر من بحار الظلمات. أبصرت عينيك تحدقان في شيء ما، نقطة ارتكاز غريبة. تابعت خيوطك، نظرت، كانت هناك بقايا الرصاص المتفجر على الأرض،

قنابل قد تركتها وقتما أصابت القذيفة جدار منزلك الضيق داخل الأحراش. تدحرج الحجر على رأسك، سقط، أغرق جسدك بالدم المتناثر بالأحمر القاني. وضعت يدي بحنو أمسد شعرك، أحاول سبر تشنجاتك، مزقت قميصي الوردي، ربطته مكان الجرح. استيقظت قليلاً، تشممت ذلك من جسدك الشفاف واختلاجات الوجه الموغل في عمق الأرض، دثرتك ملاءة كانت بجوارنا، همست في أذنك بحذر:

– كيف فعلت ذلك وحدك؟

تدفقت نسمات الهواء باردة في وجهك، داعبت شعر رأسك الذي كانت تحسدك عليه كل بنات المخيم. أذكر ذلك الحدث جيداً، لكنك فجأة ودون سابق إنذار اقتلعته من جذوره وخرجت، أصبحت أصلع تماماً. هكذا هذت لي أمك قبل أن تخرج، تابعت يومها نشيجها متألمة:

– لقد خرج هناك مع الثوار أعلى القلعة.

ولم تعد، أوشَكَت على الانهيار، كما أنا الذي رافقتك لأعوام، لكنني في النهاية تركتك، أصابتني حمى الخوف من أمسي مثلك، غادرتني وذهبت، صفعتني المفاجأة ساعة أن تركت متاعك وخرجت. قلت لي يومها قبل أن تدلف عالم الغرباء:

– إنها الأرض يا سالم، أتعي ما أقول؟

صمت وصمت أنا أيضاً. انطلقت الذاكرة هائمة في شجون الانفجار، تركتك تتمدد منصهراً في هزيع الليل الأخير وبكيت، بكيت كثيراً. الآن لا أستطيع أن أفعل لك شيئاً. ماذا عساي أن أقدّم في هذه اللحظة؟! كنت أود السفر للخارج، أن أتم دراستي الجامعية، وعندما عرضت عليك الفكرة تذمرت كثيراً، صرخت في وجهي حانقاً:

– ومن سيرافقني في تلك الرحلة المقفرة؟

كنت أعلم أنك ستقول ذلك، أدركته منذ التحاقك بجيش المقاومة على الحدود، وفي صباحك أتيتني مبتسماً، متهلل الأسارير:

- الليلة، كنا نرابط على الثغور الميتة.

تضحك حتى تسطع أسنانك جلية في ضوء الشمس الباهر. تسير وأنا أرافقك، أتعلم منك، أحاول أن أكتسب خبراتك التي تعودتها منذ الصغر.

كنت تكبرني بأشهر قليلة، تفوقت في دراستك. لكنك تركتها أخيراً، ذهبت إلى العمل. كنت نشيطاً، ذكياً، مرحاً ورغم ذلك كله كنت صارماً. تأمرنا نحن الأطفال ونأتمر بما تقوله لنا، ننفذ وصاياك بدقة وحذر. تخرج، تكبر ونحن نكبر معك حتى جاء اليوم الذي تركتنا فيه. أردت الخروج عن المألوف، كنت متجهماً:

- الجميع ينفر من الموت، فلمن نترك الأرض؟

رددت جملتك والريح تهوي ساكنة، تتسرب في شدقيك دون أن تعيرني انتباهاً. بقيت تتحدث:

- الأرض، الأرض يا سالم!

حتى وأنت تموت، آه، ليتني أحمل قلبك هذا. كم تمنيت يوماً أن أصبح مثلك رجلاً كما تقول النساء. كان الجميع يهتف بحياتك، وحينما تهب ريح الخلاف بين الشبان ينطق أحدهم باسمك لفض بكارة حربنا الجوفاء. فقط أنت الحل في هذا المخيم الضيق. ها أنت تتوسد الرمل الآن، وشق من ردهات الذاكرة ينفجر في وجهي مع هزيع الليل الشاحب، كيف أضحيت تمتلك تلك الجرأة أيها الرجل؟ كنا معاً، لا نفترق، لكنك لم تحمل سوى هم واحد. الأرض. لا يزال طيفك يراودني عندما حدثتني بأبيك الذي مات مع قطار الاجتياح. اخترقت الرصاصة جسده، تبلل وجهه بالدم الحار، هوى، خر صريعاً والبندقية تشخر بين يديه بالرصاص. مات وسلكت أنت الدرب بعده، أخبرتك أمك بذلك، حدثتني لحظتها بأن الموت خروف ضعيف يفرّ من أمام الرجال الأقوياء. اليوم ما كان عليك أن تخرج وحدك، تمتشق البندقية وتمشي، تسير وصهد الشمس يطرح جسدك الصائم، تتقدم، تحفر خندقاً بجوار

الأسلاك الشائكة ثم تعود، تبني في غابتك البعيدة غرفة صغيرة رغم اتساع المكان. أذكرك وقتما أخبرتني بأن علينا أن نقتصد في الأرض، عدت مسرعاً إلى الحدود، أخبرت الآخرين بموعد مرور قوافل الأعداء المحملة بالبنادق الإنجليزية الجديدة، سرت بمحاذاة أشجار الزيتون المقطعة، وعندما وصلت كان الانفجار أقوى من كل شيء، سمعنا بذلك الخبر في المساء حين أتيت إليك أحمل الطعام والأخبار. استقبلتني متبسماً. حدثتني عن الأربعة الذين قتلتهم، والعشرة الذين فروا أمامك كالقطيع، كنت تهتف:

– الله أكبر، الله أكبر.

وقبل أن يروك أو يعرفوك فرّ معظمهم، بينما تخبّط الآخرون في دمائهم كما أنت الآن.

ليتك تخبرني بما أصابك، أو كيف عرفوا بمكانك هذا؟

يا إلهي، ماذا عليّ الآن أن أفعل؟ الساعة تقترب من الرابعة، يتبين الخيط الأبيض من الأسود من الفجر. البرد يشتد، أنت لا تستطيع الحراك تماماً، تتجمد رعشاتك، تقلقني، أشعر كأن وخزاتك تطعن قلبي المتعب.

ما أريده فقط هو أن تبقى حياً حتى الصباح، كما أنت الآن في قلوب عجائز المخيم، أعتقد أنهم يظنونك ولياً عظيماً لا يقهر، ولولا ذلك لولجوا هذا السكون العميق في أزقة الأرض المتشققة. النور لا يبزغ والإعياء ينهك جسدينا، أخشى أن أحملك إلى غرفتك، فيستمعون إلى ضربات أقدامنا، إنهم يصيخون السمع لدبيب النمل، أعرفهم. دعني أحملك مرة أخرى وأتقدم بخطوات وئيدة، أحاول أن أرفعك بكل قوتي، أضعك مرة أخرى على كتفي المبحرة في الدم.

– أرجوك، دعني هنا.

– .....

خطوات قليلة ونصل، استمر في المشي، وعند الغرفة ألج قبلك المكان. أنقب جيداً، كنت تقوم بذلك مرات عديدة، رغم علمك بأنه لن يستطيع أحد أن يدلف جزيرتك بعدما قررت ترك الرجال في القلعة.

أتيت وبنيت غرفتك، أريج الحلم ما يزال يزكم أنفك. تريد أن تنتقم لأرضك، لأبيك الذي مات في صباك. أما يزال طيفه يتماثل أمامك؟ لم تحدثني بأمره كثيراً رغم أنه من أولئك الذين قادوا الثورة، لماذا لم تقل عنه شيئاً؟ لم أسمعك تهذي بكلماته، حروفه. عندما تركت مدرستك، ذهبت إليك في المنزل، كانت أمك تنتظرني على أحر من الجمر، تريد أن أنصحك بأن تعود، لكنك كنت ترفض، أنت رجل ولا تحب أن يتصدق أحد عليكم. صرخت أمك بوجهك يومها:

– يا ولد هذا مال أبيك، أما تفهم؟!

– .....

– إنها أموال تصل من الثوار لجميع سكان المخيم .

خرجت، صفعت الريح بوجهك وانطلقت تجاه البحر. كان بحر المخيم نزقاً. لا سفن ولا ميناء، المجاري تتخبط في مياهه، كلاب تعوي هنا وهناك، جياد تستحم بدلاً من الرجال الذين هجروا المكان. خرجت وتبعتك لاهثاً، هناك تحدثت معي كرجل، كانت المرة الأولى في حياتي التي أشعر فيها بأنني رجل، حدثتني وعدت إلى منزلي. كنت مزهواً، رافعاً رأسي في سماء النور الباسقة كأشجار النخيل. أخبرتني بأنك لا تريد أن تصبح عبئاً على الآخرين، رسمت في مخيلتك خارطة تسير في نهجها، ذهبت إلى(مسعود) الحداد وبدأت تتعلم حتى أتقنت المهنة في شهرين. كان من العسير على رجل أن يتقن المهنة في عام، لكنك وحدك بعزيمتك التي أشعلت النار في رؤوسنا بعدك دعتنا أن نبكي أمام والدينا لترك المدرسة والاتجاه للعمل. في ذلك الأسبوع ترك المدرسة أكثر من خمسين طالباً، احتجوا على آبائهم، أعلنوا العصيان ولولاك لما عادوا. أتيت إليهم وبهدوء أقنعتهم بالعودة إلى مدارسهم، في اليوم التالي كانوا جميعاً في فصولهم، ترى بماذا أخبرتهم؟ لست أدري لكنني ظننت أنك ستصفعهم حتى يعودوا. يا لك من حكيم، من أين أتيت بكل تلك الفطنة؟! تركتهم وعدت إلى أمك، قبلت قدميها حتى رضيت عنك، صلت من أجلك، بكت، رجت رب السماء بأن يبقيك سالماً، يقيك برد الخوف، ترنمت لك بحب الأرض حتى ماتت، أذهلتك المفاجأة، ظننتها بصحة جيدة وخرجت، لكنك بعد ساعة واحدة أتيت. أتيت

عندما جئتك أتعثر في ثيابي كما أنا الآن، صرخت أناديك داخل الغابات:

- إبراهيـــم، وينك يا إبراهيم؟

وهناك خرجت من الأحراش، سألت:

- ماذا هناك يا سالم؟
- . . . . . .
- تحدث، أنت تقلقني.
- أمك يا إبراهيم، الله أعطاك عمرها.

ترنحت، بكيت، بكينا. تساءلت في نفسك:" كم من الصعب أن تفارق من تحب"، لم يكن سواها لك، كانت الملجأ والمأوى كما تقول. صرت بعدها تأتيني في الليل القاتم كوجهك، تبيت في غرفتي الضيقة، تذكرني بخرافات جدتك العجوز، بأبيك الذي لم تتحدث عنه، بأمك التي تنام والاسم يلعلع في رؤاك. كنت تبصرها تمسك بيديك، تلابيبك. تأمرك أن تصلي، تدعوك لولوج قصرها المنمق. تستيقظ والأرق يبدأ في نهارك. تعتمل في خاطرك أمور شتى.

. . . أخيراً تصل إلى قرارك، أن تخرج عن الجماعة، تصنع لنفسك مكاناً قريباً من الحدود عند الأحراش، تبني غرفة، تضع بها كل سلاحك، الذخيرة التي اشتريتها من مال أمك. كانت توصيك بألا تترك الثوار، أن تموت معهم بعزة كأبيك. لست أدري إن أنت تسمعني الآن وأنا أهذي أمامك أم..؟ أشعر بأنك تموت، أحاول أن أحركك، أشعر بالدم المتجمد في محيطك، أقلبك على يمينك، لا أشعر بالنبض، الصبح يتنفس وأنت لا تتنفس. الليل يوشك على الانشطار، يشحب مع موتك، أحرك صدرك، أغسلك بماء الماسورة المنتصبة في غرفتك. يدلف الفجر من نافذتك حزيناً، ها أنت تموت وأنا في ظلامي أتركك كما تركتك من قبل. أنسل كما أنت، انطلق هارباً دون الالتفات إلى الوراء. عيناك تحدقان تجاه النافذة المسلطة على بقايا الأرض. تتسلل إلى المكان شظايا من الضوء الهارب عبر النافذة صوب الطريق تقود خطاي خارج المكان، أتلفت يمنة ويسرة ثم أغرس قامتي في بحر العتمة

ظلال الرجال

تحت الشجرة تعانقنا، دعونا لأنفسنا بالنجاة من غرق الأرض، نقشنا حروف أسمائنا على أغصان الزيتون، رسمنا وردة محاطة بالشوك، ثم افترقنا.

كنا أربعة، خامسنا كلب أخي الهزيل، أولنا جاء يوم هبت الريح عاتيةً، صرصراً في جو السماء، وكنت أنا الذي يليه. لم أكن مثل الآخرين أبداً، أمي نادتني بـ"مخيريق"، وأبي دعاني "بإلياء"، الجميع بعدها نعتني بذي العيون الدامعة، والغريب في ذلك أنني لم أكن أبكي مطلقاً، كنت حجراً أصمّ، لا أتكلم، لا أتزحزح من مقامي إلا عند نشوب المعارك ضارية في القرية حتى جاء أخونا الثالث، حضر زاويتنا المهددة بالانقراض، كبر حتى اخضلّت لحيته، وفي أسبوع واحد فقط بانت أسنانه، تقوست حتى أصبحت كأضراسي التي صارعتُ بها لأعوام كالضواري التائهة. وُلد ضعيفاً، هزيلاً وحل معه القحط بيننا، فتر الماء في الأرض، مالت الشمس نحو أرواحنا، أطبقنا على صمتنا، طفنا الأرض جيئةً وذهاباً دون أن نجد الماء، صلينا، بكينا، بكيت وكانت المرة الأولى التي يطفر فيها الدمع من مقلتيّ الناعستين، وفي المساء تغطت قريتنا بنواميس الظلام، أطبق الليل كما لم يكن من قبل، أخرجنا أصابعنا الشوهاء حتى لم نكد نراها، هذت أمي بالموت القادم من الغرب، ترنحت، أسبلت جفنيها في سقف خيامنا، استحلبنا ريقنا، بلعنا صمتنا ثم نمنا. وفي الصباح كان أخي الرابع يقبل مع انتهاء الحليب في ضرع بقرتنا الصفراء، الفاقع لونها. وُلد والحرب على الأبواب، أوشكت اجتثاث أرواحنا. القذائف تطير، تتساقط ميتة. والهرب من دوامة الصفر أضحى ضرورياً جداً، خرجنا وأجفلت أمي عن فعلتها المريعة، تساقط الحليب من ثدييها علي وجوهنا، أخبروها بأن الرجل إذا لم يصبح كذلك فسيموت شوقاً لآلام الانهيار.

كبرنا جميعاً في آن واحد معاً، كان الفيصل بيننا أعواماً قليلةً. فقط كنت أنا المتخلف عنهم، تحيطني هالة من الحب والمجون. أرعى بقرتنا حتى المساء، أعود، تتلمسني يد أمي الحانية، تبتهل إلى الله من أجلي، تصلي، ثم في الصباح تفطر على قطرات الماء القليلة وحبات البصل الناشفة. لم يكن هناك القمح، اختفى عندما ضعنا في زحام شوارعنا، تركنا متاعنا، كؤوسنا وعدنا، رجعنا نحمل همنا، مات الرجال أمامنا، تخبطوا في أزقتهم، تضرجوا بدمائهم. وعدت صغيراً مع أخوتي بين أقدام والدينا، مات أبي منتحراً بحزنه، وبقيت العجوز تهدهدنا، الشجرة مالت نحو الجنوب، تبايعنا تحت ظلها، والكلب تمدد منصهراً في حزننا حتى مات. تقافزنا تجاه دهاليز محيطنا، ارتفعنا، انخفضنا، وجاء العام المنتظر، هتف الحكيم، قال: " إنه العام الذي فيه يغاث الناس، ويعصرون " . تهالك الماء إلى حلوقنا، أمطرت السماء تحت ظل وجوهنا، امتلأ البئر وصعدت الروح إلى الجسد، أنبتت الأرض بعد قحط. تواردنا إلى البحر الممتلئ في مزارعنا، سقينا الحقول الباهتة، ماجت الصحراء، اضطربت، تفسخت حتى بانت الشقوق كما وجوهنا المتألمة. عشنا هناك دهراً. ماتت الأم في روح الانتظار القديم، أعطتنا مفتاحاً صدئاً، أوصتنا بأقفال غرفتها الوارفة ظلال الصورة والعودة بقبرها إلى هناك حيث خيام الأرض المخضبة بالدماء، وفي مزارات الزمن تهنا، تفرقنا، تعاهدنا على اللقاء، وافترقنا. ظلت الشجرة تحفر أسماءنا واحداً، واحداً. غادروني وبقيت محاصراً تحت ظل أمي أحرس قبرها. انطلقوا يتتابعون مسافرين، مهاجرين عن الأرض اليباب. غار الأول مع طيف ظلامنا. وفي عام الظُلة اختفى، لم يحترق بنارها كما أُشيع. فقد تواردت الحكايا بشأنه، هلاكه حتى صدقتهم، ليلتها رأيته في منامي، يقظتي، يبتسم، يهتف:

– أيها المجنون، أوتظن أنني سأموت معهم هناك؟

اختفى، انتهى صوته، وأنا بجوار الضريح أتألم لفراقهم، أتضرع لنجاتهم. حلّ الهزيع الأول من الليل وسافر الثالث إلى بلاد الرماد البعيدة، التي لم أكن اعرفها. انطلق يجتاز سباق المسافات التائهة

في جسر جروحنا. وهناك مات، قتل، اغتيل على أيدي الدَرَك، انبأتني أمي بمقتله عند بوابة الطريق إلى البلدة، وأنا هنا بكيت، لم أتوقف عن البكاء حتى غادرت حبيبتي والدمع يرزح تحت قدميها، تمنيت لو لم يخرج، ينتقل إلى بلاد العدوى المميتة، جاءوا به جثةً متفحمة. قبّلته، والرائحة تحفه، لم نضع عطراً على جسده، كانت رعاية المبدع في خلقه تتلمسه، مِسك ينتشر في فضائنا، هلّل الرجال، كبّروا، زغردت النساء، هتفن بشهيد اليوم الأربعين في ضريح الأشهر الثمانية. وضعته في قبره، وفي الأرض حفرت خندقاً أنتظر نبأ مقدمهم جميعاً. سقطت في وحل البكاء، وبدأت أبكي بحنق، رغبة عارمة في النشيج تبدت مع ظلال الذاكرة. أخي الأكبر الذي لم يعد، الصغير التائه في لوحتنا، والميت في قبري، حتى كلبنا الوفي بكيته.

صرخت حتى اهتزت الأرض، ضجت. خرج الرجال بملابسهم الممزقة، العارية من لحومهم، دمائهم، ظانين أنه الزلزال المنتظر، أطلقت لصوتي العنان حتى هاجت البسيطة، ماجت، خرج الجميع حفاةً عراةً من أبراجهم ينبسطون في سكون الشوارع المجهدة، كان الزلال ندائي المستغيث. تحطمت أوداجي، وجهي، حتى أخذ الجسد يهرم شيئاً فشيئاً. باتت لحيتي كثةً، مخيفةً. لم أستطع أن أقوم من مقامي القاحل. أردت الشجرة، لقاءهم هناك، إدراكهم. انتصبت على هراوتي البائسة، ووجه الأخير يغادرني في طفولتي المتأخرة. وعدته باللحاق به بعد تطهير قبور أوليائنا من شوائب الريح، وعدته وأخلفت موعدي القديم. سافر ولم أعد إنسانا كما كنت. خشيت الاضطرام في صهد الاشتهاء المر. ألبسته درعه، أسماله، ثم أوصيته بالوصايا العشر. ذكرته بجدته المتلفعة ثوب بركانها، قبّلته ثم انطلق متخلفاً عن بلاده. جثا في أعماقي مشتعلاً بالهموم، ووحدي بقيت. سقيت الزرع من دمائي المنتفضة. مر عام، ألف عام ولم يحضر أي منهم، بدأت الشجرة تشيخ، أصاب أغصانها الهرم، تحطمت أجزاؤها المنسابة مع ألوان قزح الطاهرة. لكنها بقيت شامخة، رأيتها قبل أن يأتي الرجال بآلاتهم ليقطعوها.

الليلة كانت الشجرة تغرق في ماء النهر مسافرة إلى بلاد لا أعرف طريقها. تودعني بأغصانها وكأنها تنتظر أن أعتليها، أصعد مغارتها. حتى بقيت أحدق بهيكلها الذي يشبه صورنا. أتوه في أوراقها، ثمارها. أجري نحوها، أقفز كما لم أقفز من قبل، أنطلق تجاهها، أجتاز الضباب المتلفع حكايتنا. أدندن بأنغام شبقة، أهاجر، وهناك أنتهي كما الجميع. أغرق في دوامة الموت القديم، حيث الحفل الذي ما زال ينتظرني منذ مساء ولادتي الثانية في ردهات الأرض الحبيبة.

تحدث الراوي فقال

- في تلك الليلة، تبدى الظلام حزيناً في مملكة الغرباء، حضر الليل بثقله المنهك في سماء القرية، توجه الرجال المتخمين بخوفهم يلوكون اسمها الهزيل.

صمت الراوي قليلاً، استحلب ريقه الجاف، أغمض عينيه ثم قرأ تمائم البدء. توسد حجر أحد الرجال القابعين بجواره، بدأ يتحدث، يهذي بآلامه والجمع يحدق في مخيلة المكان:

- جاءنا الفتى قصير القدمين يهتف بأنها اختفت، صدح صوته هزيلاً، علمنا بذلك من حروفه الناقصة، خرجنا نتعثر في ملابسنا، تهنا في حقولنا، بحثنا عنها ولم نجد لها أي أثر. ظن الحكماء أنها لعنة الأجداد في قبورهم المهدمة، صرخ الأطفال بالأرض التي ابتلعتها خوفاً من العار الذي لحقنا بعدها، صار الحديث عنها مستفيضاً، ازدادت الأقاويل، الخرافات بشأنها، تجمع النساء في خباء جدتنا العجوز، بدأن يتمتمن بجريمتها النكراء، رسمن وسماً واحداً على وجه التراب المتوهج بلوحة الدم. أغمضت الجدة عينيها حزناً وجزعاً، ناحت وجهها العذب، صرخت فيهن بالانصراف من أمامها، كانت تعرف أنهن قد أصابتهن حمى الخوف من جمالها المعذب. وقبل أن يتقدم هجير اليوم الثالث بخطواته الميتة سمعنا بخبر مقتلها الأليم.

****

أخبر الفتى ذو العين الواحدة أن الراوي وقف يوماً أمام الرجال في خباء العجوز متيماً ثم قال:

- لم تكن خديجة بالفتاة العادية في قريتنا، ينتصب رجال المخيم أمامها كأعمدة النور الباسقة. تمر أمامهم حتى

يشق أريجها صفوف الرجال المصطفين كأباريق الماء، يحدقون في جمالها، ابتسامتها التي تشع من عيونهم، يهللون، يركضون وراءها وقد أصابتهم حمى الجنون، وفي أسبوع واحد تقدم لخطبتها عشرات الرجال. ضجت القرية وهاجت حين تقدم عدد من شبان القرى المجاورة لخطبتها، ثاروا في أزقتنا. كانت الحرب قد أوشكت على البدء لكن رعاية مالك السماء أوقفت هذه الانتفاضة الهادرة من حمم البركان الأليم.

بعد أسبوع واحد فقط من بلوغها الحلم، وإدراكها تعاليم القرية، جاءت الفتاة على استحياء تمشي، تضع على رأسها منديلاً أحمر. استغرب الأطفال من فعلتها، تبسم أحدهم في وجهها ثم أمرها باللعب معهم في رمال البحر المائج. ندت عنها ابتسامة عذبة تجاههم ثم اختفت. أصبح الرجال بعد ذلك يرونها كأجمل ما يكون المرء. يوماً صرخ أخوها بوجهها، حذرها بعدم الخروج وقتما صار الحديث عنها يطرق أذنيه، لكنها لم تأبه لقوله، خرجت، استمرت في دراستها في مدارس القرية، كبرت، تكور نهداها، أضحت امرأة حسناء، هذى الشيوخ باسمها، انطلقوا يصفرون حين مرورها كمراهقين لم يجتازوا مرحلة الكهولة بعد، تابعوها بنظراتهم. كانوا يمضغونها بأسنانهم، يلوكون حروف اسمها الجليل، لكن ذلك كله انتهى في لحظة خاطفة، لم نعرف كيف ابتدأت؟ أو كيف انتهت؟ يومها كنت هناك في سوق القرية انتظر مرورها على أحر من الجمر وعندما أدركت أطراف المخيم بدأ الرجال يحدقون بجسدها فارع الطول. فجأة وفي لحظة خاطفة خرج أحد الملثمين من السيارة القابعة في منتصف الطريق، أطلق عليها الرصاصة الأولى، الثانية، الثالثة لتموت في مساء اليوم ذاته.

خرج الجميع في مسيرات محتشدة أمام بيتها يطالبون (الدَرَك) بالتحقيق في أمر مقتلها، لكن ذلك كله انتهى كطيف ساعة أن علموا بأن شيخ القبيلة كان خلف تلك الجريمة النكراء.

****

وعن أحد الصبية الذين رافقوا الراوي لزمن بعيد أن أبا السباع صاحبه القديم أخذ يهذي أمام جدته فقال:
يوماً اجتمع الفتى بالقوم، انزلقت دمعة على وجنتيه حزناً. صَمَت، نشيد رتيب تبدى مع صورتها التي غابت في وحل الأرض الجدباء، أغمض جفنيه، ترك الجمع موغلاً في عمق زمانه، كان يراها كما أخبرني تتلكأ في مشيتها، تبتسم، تسأله عن حاله ثم تعود إلى منزلها.

ماتت أمامه دون أن يفعل شيئاً من أجلها، لم يستطع أن يهاجمهم، كانوا ثلاثة كما قال، خرجوا بأسلحتهم. الرصاصة الأولى انطلقت والشعور بالذنب بدأ يخالجه، طلقة ثانية والرجال يتهافتون على جسدها كذباب ميت، طلقة ثالثة والموت يعتمر رأسها المتناثر كشظايا فجرت عمق الراحة في قريتنا.

قبل شهر من الموت جاءته تمشي مترددة، أخبرته بأحد رجال العجوز يلاحقها، يجري خلفها ككلب يلهث، تبتعد عنه، تتوارى بالحجاب، تهرب، تختفي، ثم تأتي إلى الراوي الحزين، تتحدث معه، يجلسان أمام البحر المنتفض، تحاوره بعينيها الواسعتين، تجيش في أعماقه صورتها الباهتة، وجهها الحزين، الشاحب، تحدثه بحزنها، تتألم وهي تنوح، تبكي أباها والدمع يرزح تحت قدميهما. تقبل رأسه ثم تأمره أن يعيدها إلى منزلها القديم، تختفي بظلها أمامه، تغور والوجه يمتقع بشفق الهزال، ينحل جسدها كما كان يراها، وفي أسبوع واحد تنتهي كطيف، تودعه بيديها، ترفع رأسها، يخبرها كما حدثني بأنه كان سيذهب لخطبتها. انطلقت أمه إليهم لكن... لكن أخاها أقلع عن قبول الخطّاب. يطلب يدها الناحلة والجميع يرفضه، إنها البدر، وهو الفقير الذي لا حول له ولا قوة. يصر في طلبه وأخوها يحذره:

- ابتعد عن طريقها وإلا...
- . . . . . .

– إنني أحذرك.
يمضي والبحر يتعاظم أمامه، يشكو لها كل وشائجه المتقطعة مع الآخرين، يصرخ وطيفها يذوب مع الماء الراكض في بحار الموت المنتصب كأيقونة في رحم السماء.

****

تحدث الراوي بائساً فقال:
– لقد ماتت أخيراً دون وداع.
صرخ أحدهم:
– أخبرنا أيها الراوي الحزين، لماذا...؟
وقبل أن ينتهي الأخير من تواشيح سؤاله، تلا آيات الرقية في نفسه، والنار بدأت تخمد في الموقد الكبير، صمت والجميع يقف خلفه متألماً، سكون أثير اعترى الخيمة حين بزغ طيف شبح عظيم، انزلقت الدمعة من عينيه، سأل:
– لماذا قتلها هذا الخائن؟!

بدأ الراوي بتمائمه، والخباء ينتفض كما هزيع الظلام الذي يحفهم، تحدث بصوته المبحوح:
– لقد أدرك الجمع ما كان بعد يومين فقط، كان ذلك حين أراد المختار التحرش بجسدها الشفاف في ديوانه العظيم، لكنها صرخت، ولولت دون أن يأبه لحالها، اغتصبها أمام رجاله، قتلها بفحولته، وقبل أن يدلف غرفته ألقى إليها بعضٍ المال ثم أمرها بالخروج، لكنها مكثت هناك، باتت ثلاثة أيام خوفاً من العار ثم خرجت. كنت في انتظارها على رصيف شارعنا الطويل، وعند مدخل المخيم كان وجهها ممتقعاً، ظنناه من الرصاصات البائسة التي أطاحت بجسدها، لكننا أدركنا غير ذلك حين تحدث أحد الحراس عما رأى، قال:
– ألقى إليها المال بعد انتهائه منها، لكنها صرخت بحنق في وجهه:
– كلب، حقير، والله لأخبر أهل القرية جميعهم.

صمت قليلاً حتى انطلق صوت من بين الثنايا الضيقة مستفهماً:

– أخبرنا أيها الراوي.
– .....
– أنت لم تجبنا عن سؤالنا بعد.
– .....
– كيف قتلها وقد تركها تعود؟

تحدث بصوته المتعب والجسد ينتشي أمامه كعروس تنتظر الزفاف، تمتم:

– بعد عودتها خاف على نفسه من الفضيحة، خاف من كلامها، حتى تردد في عودتها سالمة، حينها أمر مجموعة من رجاله بقتلها، وقبل أن يبتعدوا رآهم صديقي المسكين، اعترف عليهم، وفي التحقيق دلفوا ما في جعبتهم خاسرين.
– لكن أين هو الآن أيها الراوي؟
أطبق الحزن مرة أخرى، ووجه الراوي يغلي كبركان، هتف:
– إنه يسرح في قريتنا دون أن يعترض سبيله أحد.

***

وانتهى حديثه – رحمه الله – مع عتمة الليل التي ابتلعت الرجال جميعاً في لحظة خاطفة.

العجوز والرجال

إشارة

عندما اكتشف أحد المولعين بالتنقيب عن المجهول صخرة الجلمود المحطمة – ملأى بالأحرف والكلمات الغريبة – تائهةً تحت صخور الأرض. أصبح ضرورياً عليه – بعد إزالة الغبار وإجلاء الصخرة – توضيح العبارات الغامضة، المتوارية عن العين المبصرة ليعهد حينذاك إلى مترجم اللغة الآرامية بقراءة ما على تلك الصخرة المتحجرة. لكن لا أعتقده يحيد عن قراءة صحيفة البارغان بحكم تقدمها عن أحجار الجلمود في الوصول ليد عالم الآثار ذاك.

*****

الصحيفة

النيران تضطرم .

الريح صرصر تعوي مع خريف الليل الطويل. المطر يتوارى خلف سحب الانفجار. وسكان البلدة يفرون من المجهول. التنور يبحر في قلوبهم. يصرخ أحدهم بصوته الأجش متألماً:

– انظروا أمامكم كيلا تموتوا، سيروا بأرواحكم.

يصمت والنار تعتمر شعر رأسه المتطاير. تلفحه، توسده الأرض الرطبة، اللينة. يطلب النجدة. يصرخ، يبكي والجميع حذر من العودة للوراء. وعندما يدركون زوايا السفينة تتهادى الأصوات:

– إنها السفينة، الرحمة.

تعصف النيران مرة أخرى، المطر يتساقط مستعراً. الطوفان موت، الريح تعوي خائفة، الأرض تتلوى وتميل. أخاديد عظيمة. الماء يكبر، يكبر حتى يغطي بقايا بيوتهم. يتصايحون. يتهافتون على السفينة كذكور النمل البائس، يتعلقون بأطرافها المحطمة. لكن قوة الموج تلفحهم. يسقطون جميعاً في وحل الطين. لا يبقى بداخلها سوى أعداد قليلة، تائهة. وهي تسير بهم في ظلّ من الغمام.

الأغوار تجتث بقايا الثكنات الضيقة. الأطفال يتصارعون. الجميع ينشد الرحمة. تباشير الانحراف تطل من الجسد. يبزغ وجه شيخ القبيلة شاحباً، يستقبل وجه السماء، يرفع يديه الثقيلتين، يرنو ببصره بعيداً. يتنشق عطر الأرض العطشى. يتمايل تائهاً، يخفض صدره، ويداه ترتفعان إلى الأعلى. يترنح، وصدى شجوه يضرب عمق السفينة، يهتف:
– يا حكيم، أحكم ماءك. الماء غلّ.

وعندما يغلق أطراف فمه المريض. تنخفض حدة المطر. تخفت شيئاً فشيئاً. لكن الأغوار سحيقة تبتلع ما تبقى من القرية. والجبل يهتز كعصفور بلله العطش. يتوسطه فتى الظل الميت خائفاً، حانقاً، الدمع يجرى على وجنتيه الحمراوين، يجلس القرفصاء. يبصر الموتى على الأرض الصلبة. يضرب رأسه بصخرة من الجلمود التي يكرهها. يقذف عينيه حزناً. يبكي، ينوح ما تبقى من العاصفة. يرتمي في أحضان عمره، ينكفئ على وجهه، والثقوب تغدو ضئيلة في وشاح الليل القاتم. يبصره سكان الشق الأعلى من السفينة، يهزجون بحزنه، يتأرجحون على أعتاب شراعه، ينادونه بأعلى أصواتهم دون أن يجيب. يهتفون بشيخه، أستاذه ليأتي إليه مسرعاً. يرتفع بريق خاطف بين عينيه يشق صدر السماء. يبزغ النور في جبهته. يناديه جده:
– يا بنيّ اركب معنا.

يطمئن الفتى، تنخفض حدة توتره. ينزل حذراً وتضاريس الوجوه الناعسة تتهلل كلما بدأ الاقتراب يضرب أزمان حياتهم. الروائح غادية تشدو بأغانيهم. خيوط النهار تبدأ في الظهور. ينادي المؤذن فيهم. يحضر الشيخ متدثراً سترة المعركة القديمة. يعتمر خوذته البالية. يبصره الجميع حذراً، متوجساً. يشدو أحدهم لجاره متخفياً في ثيابه:
– لقد أصاب زعيم قبيلتنا الجنون.

وقبل أن ينتهي من حديثه يشعر بزلزلة تحت قدميه تكاد تسحقه. يصفعه الريح بين عينيه والرماد يتطاير على بقايا وجهه. يستحضر العجوز القبلة. يهتف:
– تيمموا وجه الماء في زمن الجفاف، واستقبلوا قبلتكم المُثلى.
يصلي بهم جميعاً، وعندما ينتهي يأمرهم بالإنصات لشعائره المتصوفة. يخبرهم بالحزن الذي يعلوه، يطبق على أنفاسه.
– هذا ما كنزتم لأنفسكم، فلتصلّوا على موتاكم.

يصمت، يحدق بهم واحداً تلو الآخر. والفتى البعيد يحفظ رأسه بين روحه وجسده. يتدثر سترة أبيه. يقوم من مقامه القاحل كصحراء بيته والهيبة تحفه. يأمرهم بالإنصات للمبارك الذي أوقف عين الماء عن المسير. قيثارة صمت تتبدى مع صورته الغريبة. يحدق الرجال بأنفسهم، يتساءلون بالولي المبارك. وبعد لحظات ينتصب مجنون القرية على كرسي من الأبنوس تحفه غمامة دافئة تثلج صدره. يتحدث ونبرات الجزع تحاصره:
– أيها القوم، ماذا اقترفت يداكم؟ أجيبوا بالله عليكم قبل أن نهلك جميعاً.

يتوقف دون أن يعرف الرجال عم يتحدث أو ماذا يقول؟ آخرون يهذون بالمجنون الحكيم الذي صعد مغارة الروح، ليجيبهم وقتذاك متردداً:
– لقد تركتم أرضكم لأعدائكم، فررتم. ها هي اللعنة تحفكم. أجدادكم في السماء تبرأوا منكم. فلتعودوا إلى موطنكم الأول، دياركم، وأقلعوا عما اقترفت يداكم، وإلا أهلككم الله ببغيكم.
تحاصرهم الدهشة مستعرة، حب جارف يحدو صورة الوطن. لم ينبس أحدهم بأي كلمة. يغدو الفتى أمامهم عظيماً، سامقاً. يتأبط مصحفه المغبر، يهتف:
– عودوا إلى دياركم، السفينة تقودكم إليها دون قبطان. واركبوا سلاحكم كجدكم هذا.

يبتسم الجد والخوذة تتهادى مع دمعات النور. يعطيهم سلاحه والسماء تعزف سيمفونية العودة الأخيرة. يقوم الرجال متثاقلين. ينزلون في مكامنهم. يهذي الفتى وشبق الوجه لأم ماتت منذ أزمان العداء المتعثر تبدو هلامية كظل الجبل الصغير. يتساءل أحدهم:
– كيف لنا أن نقاتل والسلاح تهالك مع الماء إلى الأرض اليباب؟!
يغمض جفنيه، يمط شفتيه ألماً، ليأتيه الجواب من البقعة الداكنة في الدهليز الضيق سريعاً.
– هناك ستجدون سلاحكم، فجهزوا عزيمتكم.

يصغون والفتى يتقدمهم. العجوز يسير خلفهم بخطى وئيدة، وفي إحدى يديه هراوة تقوده إلى مكامن البوح بنصر الأجداد. وحينما تصبح السفينة في مواجهة المدينة التائهة بعمق النهر. تتساقط السيوف بأيديهم من أنهار السماء المتراخية. يهلل بعضهم، يتراقص والدمع يغرق الأوداج المتشققة:
– لقد جاء الوعد الحق، وعفا الله عما كان.

يتقدمون جميعاً والسفينة تحط رحالها عبر بوابة المستعمرة النائمة. يدخلون بحذر يحملون خوفهم. يسيرون ببطء، يركضون، يهرولون مسرعين. الملابس تتمزق مع صورة التل البعيد، وعند نهايات القلعة يجدون كل شيء قد انتهى تماماً، ولم يبقَ سوى قليل من المدن التي تنتظر فرسانها لبدء المعركة من جديد، وإلقاء الجيف القاحلة للحيتان التي انتظرت نذر الشيخ إليها طويلاً.

صخرة الجلمود

المدينة روح وريحان.
القلعة ضوء شاحب، أجزاء مهدمة. يدخل الرجال بحذر متوجسين بينما يرسل الآخرون هداياهم لسيد البحر. يلقون بالجثث الميتة للحيتان الجائعة. يمرون بسيوفهم أعلى التل. يحدقون بالشمس التي لاحت في البعيد مع ظلال موتاهم الغرقى في وحل الطين. يجلس الفتى قصير القدمين مع المبارك يتدارسون مهمتهم القادمة. يحددون طريق إجلاء المكان ورفع أعلام الانتصار أعلى القلعة.
يهتف الحكيم:
– واعلم يا أخي أن الصبر مفتاح كل عسير.
يحدق به الفتى مستغرباً، تحاصره الدهشة، تلفه كل تهاويم الشكوك. يتمتم:
– أخشى أن تكون المرابط الذي علِمنا بمقدمه منذ عصور الثلج.

يضحك الآخر بينما تنزلق دمعة على خده. يخبره بضعف حيلته، أمنيته بإدراك الرجل الذي يقول. وفي غمرة هذا الحديث تسطع تجاويف القادم مع الريح. كان الشيخ قد حمل أمتعته وقدم إليهم. تبسم في وجوههم. تحدث بتؤدة:
– هيا أيها الفتى، ستعود إلى أمك.

ينتفض صدر الصغير، وشدو الصوت يتردد صداه في أذنه. يحيطه الخوف. الوجه نصف ميت. لم يعرف سوى أن أمه قتلها الجند بجواره، كانت تترنح، تهذي بأقوال الجدة تتلو آيات القرآن الذي هجره الجمع.
– كل نفس ذائقة الموت.

ترتمي في حضن الأرض، تتوسد وشاح الدمع والفتى يغوص بعينيه يستجلي بقية الحدث. رآها تصفعهم واحداً واحداً، ونصل الخنجر يخرج من الجزء الآخر في الجسد. حمله الأعداء دون أن يراها أو يودعها. يصرخ:
– لم فعلت ذلك أيها الجد؟! لا أريد ما مضى.

يتبسم العجوز. يضحك والدمع فرح القادم الجميل. يتمتم:
– البارحة، جاءني الهدهد بالرسالة. أخبرني بأمك التي ظلت تقاسي الألم، حتى ساعدها ذئب القرية اليتيم. إنها الآن في مروج الظل المرتقب.

ينشرح صدر الفتى، تنجلي ضبابته. يعتمر الخوذة الضيقة. يصرخ في الجند آمراً بالتحام الصفوف، وعندما تحين الساعة يتوجهون جميعاً أعلى القلعة. تتجلى أمامه مزرعة أبيه الميت، يبصرها كبيرة تجوس قلب القرية المخضبة بالدماء، التائهة كلوحة الاشتياق المتوسدة عنق النهر. وقبل أن يدلفها. يطرق شقاً من جدار ذاكرته حلم النهوض. يظهر أبوه أمامه مرتدياً بزة عسكرية بالية. يبتسم في وجهه والجبهة علامة الإيمان المترعرع في نفس الآخر. يشدو له بأغنية كان يحبها في صغره والفتى لم تحمله قدماه. يسقط مطرقاً لترانيم الأب:
– لقد رفعت رأسي عالياً يا ابن أمك.

ينتهي حديثه. تذوب الصورة، والرجال يحدقون بالفتى الذي ظل يحدث نفسه ساعات طوالا هائماً مع الوهم. يقوم والريح تلفح وجوههم جميعاً. يدخلون غير آبهين ببقايا السفينة المتهالكة على الأرض. يجري الفتى وسعف النخيل تتمايل طرباً مع روحه. يصل جدار منزلهم القديم. يصدر صفيراً حاداً. يصرخ دون أن يكون في الخارج أحد. تحاصره الشكوك. يظن سوءاً بالجد المتفرس تقاطيع الجبهة القاتمة. يطرق الباب مرات ومرات لينتهي عند صوت ناعس يدعوه للولوج. يدلف المكان. يبصر أمه طريحة الفراش. يجري

نحوها باكياً. يقبل قدميها، رأسها. يخبرها بنفحات الوصول المتأرجح على جرحه. ينبسط وجهها، تنتشي تلابيب صدرها. يأخذ بيدها الناحلة تجاه التل. وعلى سفوح الساحل تلوح المئذنة منتصبة وسط السفينة، تشق كبد السماء. الأذان يرتفع مرة أخرى. الساعة ضخمة تجوس قلب المئذنة. بندولها يغور يميناً وشمالاً. الجميع يركض مهللاً. رافعاً رأسه كأنه نسي ما قد كان بالأيام القلائل التي مضت. يخلع الفتى ملابسه بجوار أمه. يرتدي بزة أبيه. يشدو معهم، يترنم، يهذي، يقبل رأسها من جديد ثم يخبرها ببقايا الأرض المنتظرة سيوف الروح لتحريرها من أيدي أعدائها، ورفع رايات البلاد المدمرة في بقاع البسيطة. وقتذاك تخرج روح الأم مع الفتى الذي صفع الريح بوجهه وغار مع نجوم الظهر إلى رمال البلدة القديمة سائراً مع الشيخ والمبارك يتقدمون الحشد كله.

الغضب

مات (الغضب) وانتشر الخبر

هكذا ترنمت قريتنا بذلك الحادث الذي لم يصدقه أحد لشهور طويلة مضت. كنت في صبيحة ذلك اليوم متوجهاً إلى عملي الذي أبغضه، أحمل في جعبتي كمداً من تلك المهنة التي أهدرت صحتي، أمسك بإحدى يديّ مجموعة من الرقاع، و بالأخرى مسبحة قديمة ورثتها عن جدتي. وقبل أن أصلَ ذلك (الكتّاب الخانق)، تحلّقت حولي مجموعة كبيرة من الصبية. ظننت أنها مظاهرة ستنطلق إلى ميدان المدينة لسبب ما، لكن أحدهم هتف بي واجفاً:

– أستاذ، أعلمت الخبر؟

وتوقف، فتوقفت معه كل جوارحي عن التفكير.

قال متابعاً:

– لقد مات (الغضب).

وانفض كما الجميع.

***

تلك الليلة التي أعقبت الحادث، توجهت مع أحد الشيوخ إلى بيت العزاء، فلم أجد أحداً هناك. كان العزاء يعمّ كل ردهة في قريتنا. بحثت عن أيٍّ من الرجال الذين أعرفهم، علنّي أهتدي إلى الأسباب الحقيقية لموت (الغضب).

كانت الروايات مختلفة تماماً، كلٌّ يسرد حكاية تختلف عن سابقاتها،(فأبو جميعان الرازي) رفيق دربه الأول يحلف بأغلظ الأيمان أن الغضب مات مسموماً، مبرّراً ذلك بأن إحدى نساء المدينة وضعت له السمّ حتى تشفي غليلها لعدم مبالاته لدعوتها له كل عام. أما مسعود الحلاق فيقسم أنه مات على أعتاب بئر القرية القديم، حينما تذكّر ما جرى مع أهل القرية قبل أعوام الرماد البائدة، وقت أن احتل رجال (مخيون الدبش) – أحد أكبر قطّاع الطرق – أرجاء

القرية، وقتلوا رجالها، وسَبَوْا نساء القرية المتلفعات بالسواد، حتى إن الحلاق، صار يهذي ويقول للجميع إنه كان يتمنى أن لو خُلق قبل تلك الحادثة ليريهم كيف يصنع، لكنّه غرق في موته حتى الثمالة، دون أن ينقذه أحد.

أما (مهجان محمود الهيجان) فيحلف بالطلاق ثلاثاً أنّ الغضب مات مخنوقاً بعد أن شرب كأساً من (الشاي الثقيل) عند أحد أصحاب المقاهي، الذي وضع له مخدراً دون أن يعلم، وبعد أن سرى الخدر في جسده خنقه وألقاه في بئر (ودان) – الذي يهجوه كل شعراء القرى المجاورة – لتحضره بعد ذَلك ذئاب الصحاري المجاورة لقريتنا.

ما أثار استغرابي حقاً هو نبوءة شهد المشهداني التي رفضت الزواج منه قبل عشرة أعوام حين قالت: رغم أن جميع النساء تحلم به عريساً لها، إلا إنني أرفض أن اقترن برجل سيموت مهزوماً، وستحمله إلينا ذئاب الصحاري.

كان ذلك ما سمعته منها يوم أن توجهت مع (الجاهة) التي تحدثت باسمه، طالبين من زوج أمّها شرف النسب من ذات الحسن والجمال. وانصرفنا دون أن يفعل شيئاً غضب القرية وزئيرها.
حاولت بعد ذلك أن أربط بين ما قالت وما جرى، لكنني لم أصل إلى نتيجة تذكر، فكتمت عن نفسي الخبر وبدأت أغفو على نواح أهل القرية وشخيرهم.

***

هكذا أصبح حال الجميع هنا بعد مصرع (غصوب هامد البرشاوي) الملقب بالغضب. سوادٌ قاتم يغلف المكان، أسواق خالية إلا من عَسَس يتسكّعون جيئة وذهاباً. ولشهور طويلة ضاق بي وحدي كل ماً أرى، وأنا أستاذ القرية الوحيد، فقرّرت أن أفعل شيئاً، وكان ما كان.
في المسجد الذي يتوسط قريتنا، اجتمع الرجال في ملابس الحداد.

حضر الأطفال الذين ما زالوا في المهد وفي عيونهم دهشة الآتي البعيد. أما النسوة فكُن يتربّعن خلف الحُجُب في نهاية الجدار المرتطم بسقف المسجد، يتلصّصن على أقبية السواد، الأجساد الهزيلة التي لم يخرج من أصلابها شيءٌ بعد وفاة الغضب. بعد أن أدينا صلاة الغائب على أرواح قتلانا الذين فقدناهم في أعوام الجدب، وقفت خطيباً أمامهم، صحت كبركان ثائر:
– أيها الناس، يا من اكتويتم بنار لم يذقْها غيركم، أما آن لكم أن تعودوا.

ومع كلّ كلمة تخرج من فمي، كانت تراودني ملامح وجهه الهزيل، الميت. طفرت دمعة يتيمة على خدي فبدأت أتمتم بحزن "ثبتني يا مولاي، حتى تنتهي الشهور العجاف"، والنساء في خِباء الجدة مشدوهات مما حدث.
– كان (الغضب) رجلاً لم تعهد البشرية مثله اليوم.

وتطفر دمعة أخرى، تراوح مكانها، تفاجئني ملامحه وهو يقود الثوّار إلى جبال الضاحية الشرقية، يسير في مقدمتهم كصقر يحلّق في الأجواء، يرتفع إلى حدود المستوطنة المتاخمة للقرية، تتهادى صرخاته مع كلّ طلقة تخرج من رشاشه (السيمينوف). وجهه النوراني، يداه المنبسطتان كسيل جارف، سكنات الوجه حين تعتمل الأفكار في رأسه، أصابعه التي تتحرّك بكلّ قوة حين تضغط على الزناد.
– أيها الرجال، فلنكن جميعاً رحماء بشيوخ قريتنا، ونسائها. فلنقلع عن الحداد و..

أصمت، أبتلع لساني، يصمتني نواح العجائز، بكاء الأطفال الذين ما زالوا في المهد. يهتف أحدهم من بعيد:
– أيها الشيخ، نحن نعلم لماذا ترغب في أن نغلق باب الحداد؟ لأنّك (منتحباً) لأنّك تكرهه.

بدأت ترتجف كل سكنة من جسدي المترهّل، اصطكت أسناني صفراء اللون: كيف لي أن اكرهه وهو الذي ذبَّ عني كثيراً من الأذى؟! تعتمل في ذهني مفردات كثيرة، صور تاهت في مساحات الزمن، كأن المتحدّث يريد أن يذكّرني بتهديد الغضب لي حين ولجت القرية أوّل مرة. كان ذلك قبل خمسة عشر عاماً. ضربت أحد الأطفال "فلكة" على قدميه لأنه لم يحفظ الدرس جيداً، فجاء إلى الكتّاب وفي عينيه كلّ شرور الكون: كيف لي أن اعتدي على أحد أبناء قبيلته؟ ولم يكن يعلم أن الكتّاب فيه (عصا وفلكة على الأقدام). وعدته بألا أكرر ما جرى، لكنه جاءني مساء اليوم ذاته وقبّل جبهتي واعداً إياي بعدم تكرار ما جرى.

كنت على وشك أن أخرج من المسجد، أن أخرج من القرية كلّها بلا عودة، لكن أحدهم هتف بصوت ناعس من بعيد:

– أكمل يا أستاذ.

تهللت أساريري. لم أصدّق أن أحداً سيجرؤ على أن يطلب مني المزيد، فصحت مسرعاً:

– علينا أن نعود كما كنا قبلاً، كأن الغضب ما يزال بيننا، وكأن شيئاً لم يكن.

لكنّ أطفال القرية وشبّانها صرخوا بأعلى أصواتهم داخل صحن المسجد.

– و أين لنا بغضب يكفّ عنا شرور أطفال المدينة؟

– .....

– ثم من الذي سيحضر لنا الحلوى؟

– .....

– هل سنجد من يعيرنا المال دون أن يطلبه؟

– .....

– أسيكون بيننا من يأخذنا لنعمل في أرض الأجداد رغم تنكّر أهل البوادي لنا؟

– .....

انتهت ترانيم الرجال بينما كان الهزيع الأخير من الليل يحلّق في أجفان الجمع، فقاموا دون أن يستمعوا لما سأقوله ثانية، وقبل أن تذوب كلماتي مع الريح.
ندمت، ثمّ هجرت تلك البقعة إلى الأبد.

تذييل

بعد عشرين عاماً كان (الغضب) يقبع في كلّ ركن من زوايا القرية، يحمل سلاحه و أسماله، في انتظار لحظة الصفر للانقضاض على المجهول.

زوجة عابرة

حين أومأت برأسها لي فهمت ما كانت تعنيه، أدركته تماماً، عرفت ما كان يجول بداخلها من جنوني. لقد أضحت حباً قاتماً، هكذا خمنت أو اعتقدت.

استمعت إليها، ذبت في حديثها. أغمضت عينيّ. طنين يضجّ بداخلي حكاية لم أنسها، وتهوي في قيعان موتي، تدب في ذاكرتي، تطويني فأصبح قيثارة عزف حزين، تدندن بكلماتها المقطوعة، تسكبها في ولهي، ترميني على أعتاب أوراقها، تمد كفيها ووشاح الدمع يترقرق مع أنفاس الأولى البائدة في نسياني، تنبسط في شعاع السكون والشمس ترتفع في الأفق الوردي، ترسل أشعتها في مكاننا، نصبح ضوءاً يكاد يتفجر. أغمض بيديّ كلّ عيون الجسد البائس، أمسح على رأسها، أمسّد شعرها. أمامي هي الآن كما لم نكن من قبل، تمد كفيها وظلال الريح تعبرنا. تحدّق في وجهي، تبتسم، تغني عشقاً وموالاً، تسرح في قلبي، تجوس عنفوان روحي وتقول "اكتب"! ولم أكتب شيئاً.

أتردّد في أن أهذي على تهاويم كفّيها، أرتعش لتلك الفكر الآثمة، كيف لي أن أفعل بها كما الأولى؟ وأصمت، أبقى حجراً جامداً، ساكناً عن دغدغة حروفي. كلماتها باهتة، مرعبة، كأنها هي، الأولى التي طوحتني، أشعر باللحظة التي انقضت منذ عصور الثلج، أغمض ذاكرتي وأفقأ حلمي، لحظات سكون تراودني، شكوك تكسر حاجز وطني، كأنني أحلم. أتردّد، ألملم براكين حبي وأمضي، أسير خطوات قليلة على شاطئ بحرنا الذي اجتاحته بصدرها. هي صامتة مثلي الآن، لا تتحرك، كفاها معلقتان بين السماء والأرض، تصرخ في وجهي بأعلى صوتها "اكتب!" و لم أكتب شيئاً. أتردد في أن أهذي على تهاويم عروقها، لكنني أشرع في الكتابة، أشعر بيديّ تنفلتان غصباً عني، أرسم خطوطاً

ومجازات لجنوني، استمر في ولهي، أعايش ظلي ووعورة روح لأشباح لازمتني، أكتب حتى يمتلئ جسدها بلغتي وحكايتي، تصرخ مرة أخرى بجنون "اكتب". تصمت، كأنني لم أكتب شيئاً، ولم أكتب في جدران مخيلتي حروف صمتها، أنظر إلى جسدها الذي تملأه الحروف، إرهاصات تهزّني، لست أدري هل كتبت حقاً؟ و لماذا تصرخ إذن؟ جنون يعتورني، يركبني كشبح هارب من حتفه، أمضي تاركاً خلفي روحها، لكنّها تجري، تركض كقطار يعشق السير على رصيف الذاكرة، تقف، تحدّثني، أسمعها حتى الغرق، تبكي بحنق، تصرخ بحدة:
– لماذا تزوجتني إذن؟

أبتسم، لست أدري هل تزوّجتها فعلاً أم أنها امرأة كاذبة، فاجرة؟ أتركها وأصعد مغارة روحي، أحدّق في حدود بحري، تطرأ عليّ أفكار غريبة، لماذا لا أنتحر؟ وأصمت، أخاف الموت، أخافه كما أخافها الآن، أضحك، يخرج الزبد من شدقيّ بلذة، الموت فكرة مرعبة، مروّعة، أخبرها بذلك فتراودها الدهشة، تسألني:
– و من قال لك أن تنتحر؟
لا أدري بماذا أجيبها، يكفيني صمتي، "الانتحار جريمة باهتة، مريضة مثلي" وشيخي يتدثّر عمامته الأولى، يصعد المنبر، ينادي بالتحام الصفوف والموت على أعتاب الوطن، أسألها:
– و كيف ماتت؟

أصمت، هل ماتت حبيبتي فعلاً؟ أقف عند السؤال الذي يزلزلني، أنفض بكارة وداعتي، أغنّي بشبق، تضحك والدموع تملأ مقلتيها، تظل تتحدث دون أن التقط منها سوى:
– أنت من يخبرني بذلك، لأنك وحدك من يعلم.

أي مجنون أنا؟ لماذا أهذي أمامها؟ ألا يكفي ما فعلته بها قبل زواجنا؟ أمعن النظر في وجهي عبر سفوح حزنها، أبصر زوجتي الأولى، حبيبتي، تمتلئ مخليتي بدمائها، أصرخ، أصرخ وزوجتي

الجديدة تلملم جرحي، تحتضنني، تتشبث بي، وعقلي لا يهدأ. كانت الدماء تملأ جسدي الذي تشبثت به قبل أن تسقطها رصاصة فاجرة. ماتت على معبر للموت، على أرداف مستوطنة مكتنزة، كان الجندي يهتف:
– موتوا كالجرذان.

وتقف مسودات حكايتي عند هذا القدر من هذياني، أمسك بزوجتي، أسألها العودة إلى منزلنا، أعدها بأن أهدأ، أن أكتم ذاكرتي عن ظلال جرحي القديم. نسير من جديد حتى نهاية الشاطئ البعيد، نتوقف عند آخر نقطة لبلادنا وأفقأ وسماً ابتلعه الموج، أرسم اسمي واسمها، أضحك بجنون، معادلة خاسرة أن نكون، أن تكون الحكاية، لكنّها ستبقى هكذا حتى ندرك بحرنا الأخير.
الذي لن ندركه.

رسائل باهتة

باختصار، ولا شيء غير الاختصار.

عذراً منذ البداية، قد لا يعجبك هذا الاختصار ظناً منك أنني أنتظر الهروب من بين يديك مسرعاً. لكن الحقيقة – ويعلم الله – هي أنني متشوق للقياك. لكن كما أنت ترى. هذه الرسائل ليست أمراً سهلاً. إنها أمانة، وأنا أريد إرسالها بأيّ شكل إلى أصحابها. من هم أصحابها؟ لست أدري حقاً. لكنني وجدتها ملقاة على قارعة الطريق. ثلاث رسائل من أشخاص أظنّهم أصابتهم لوثة الزّمن المرّ. وكل رسالة تختلف عن الأخرى. عناوينها، همومها، مشاكلها، أحداثها. المهمّ هو كيف تكدست في البقعة الداكنة نفسها؟ لا أدري. لندع ذلك حتى النهاية. ما أريده منك فقط هو أن تحاول معي سبر أغوار المشكلة وإيصال هذه الرسائل إلى أصحابها لدفع هذا الحمل عن كاهلي. وجزاك الله كل خير.

*****

الرسالة الأولى

غزة في الهزيع الأخير من ليل السبت ٢٠٠٢/٥/٧

عزيزتي كوثر،

لا أدري ماذا اكتب؟ أو كيف أبتدئ؟ يكفيني فقط أن أقول لك إن رسائلك التي تصلني متأخرة ما زلت أقرأها مرات ومرات، وحين تطلّين برأسك من شفق الصورة أبكي. أنهار من الدموع تتساقط تائهة على وجنتيّ دون أن أرفع رأسي عنك. البارحة فرغت من قراءة رسالتك الأخيرة للمرة العاشرة. كنت أترنّم بكلّ سطر رسمته على ظلال ورقك، وعندما انتهيت دلفت أمي غرفتنا المتلفّعة بروائح الصندل. ابتسمت في وجهي، كانت تعلم أنني بكيت. أخبرتها بأنك سئمت، مللتِ الفراق، احتارت أمي ماذا عساها تفعل؟ "ماذا بأيدينا نحن؟" قالتَ "القدر يتربص بنا دائماً". لا أستطيع أن أقول شيئاً سوى أن اصبري. أتذكرين؟ كنا نشدو بأبيات الصبر تلك.

سأصبر حتى يعجز الصبر عن صبري. آه يا صبري. من صبري هذا؟ مات الصبر. احترق بجمرات العبور الملتهبة. نفد الصبر. لكن ماذا عسانا نفعل؟ لا أنت هنا ولا أنا هناك. كم تمنيت أنك لم تغادري. ما أزال أتشمّم طيف الحوار الذي دار بيننا. كنت مشتاقة لأمّك التي تفطرت قدماها من عناء الطريق إلى الحدود السورية اللبنانية قديماً. هاجرت وأنت بين قدميها كي لا يراك الجنود. ثم تركتها. أتيتِ إلى هنا وتزوجنا. أخبرتكِ أننا لا نستطيع الذهاب هناكَ كما تعلَمين. كنت تبكين. تودّين الولوَج من بوّابة الريح، ورغم عناء الجدال الطويل في النهاية أقبل عرضك. أنت تغادرين وحدك وتتركينني وابنتنا (نور) ثم تعودين بسرعة. هكذا اتفقنا. أسبوع فقط ولم يكن أسبوعاً قط. أصبح سنواتٍ الآن. أعرف أنه كان طلبك لي بسبب ذلك. تعرضين عليّ الزواج وتركك للمجهول. قد يطول بنا الزمن، لكني سأنتظرك. هكذا وعدتك منذ لقائنا الأول، وتعانقنا. أمي الآن تهدهد طفلتنا كي تنام. أتدرين كم تبلغ الآن؟ لقد تجاوزت الخامسة. وقتما جهزت تأشيرتك لعبور الحدود كان عمرها سنتين ونصف السنة. ها هي تكبر أمامي، تحبو، تنهض، تقول لجدتها دائماً "ماما"، وأمي تقول لها "يا عيون ماما". لم تكن تعلم أن أمّها غادرت ولن تعود.

آه كم اشتقت إليك، كيف يمكن لي أن أعبر لك عن ذلك؟ عندما اجتزت الحدود وبقيت أنا في غزّة، انتظرتك في اليومين الأولين، وفي الثالث أغلقت الحدود، لا يمكن تجديد تصاريح العودة للاجئين من سوريا أو لبنان. أتدرين ماذا حل بنا؟ كارثة قصمت ظهري، ظهر أمي، أبي. أبي الذي مات بعد مغادرتك بشهرين. أتدرين كيف مات؟ كان يمرّ في طريقه في ساحة المخيم مغادراً المسجد، وهناك سمعهم يتحدثون عن إغلاق الحدود ومنع السفرِ أو العودة إلى المخيم. أصابته الحمّى، أدركته لوثة الجنون أخيراً، الشيب اعتمر لحاف رأسه. عاد. وصل المنزل وبكى، بكى، ظلّ يبكي دون أن يتوقف، كأنّه عرف أنهم لن يفتحوا الحدود مرة أخرى. قال لي: "ليس لك إلا الله. قف على عتبات بابه، والزم الدعاء. كما تعلمين،

لم يكن أبي يتوقف عن الدعاء أو عن زيارة الزّاوية الصوفيّة، الشاذليّة. كان متصوّفاً إلى حدّ بعيد، مريداً، يلزم الاستغفار. السبحة لم تكن تفارقه. حتى عند موته دفنتها بجواره. ثم حضر شيوخ المخيّم كلهم. أقاموا شعائرهم هناك وأعلنوا وفاة العارف بالله، العابد الزاهد عبد الله محمد بن محمد الشاطبي قدّس الله سرّه. قالوا إنه من أولياء الله وستظهر كراماته لأهالي المخيم عند عيد العودة. هكذا أردفوا يلوكون حروفهم. ثم طلبوا مني الذهاب معهم إلى هناك. الزاوية. كنت تنعتينني بالمجنون حين تحدثني نفسي بزيارتهم. تضحكين. تسألين إن كان هذا هذيان المهندسين أم . . .؟ أم ماذا؟ ألأنني مهندس. انتهى العمل الآن. أنا كما أخبرتك سابقاً دون عمل. ربما تسمعين في نشرات الأخبار عن البطالة التي اكتسحت شوارعنا. فاحت رائحتها في جنبات المخيم. حواف المساجد اكتظت بالمتسولين. الجميع هنا متسول. أتدرين كيف نقتات طعامنا؟ من ذلك الحقل القاحل الذي استولى اليهود على ثلاثة أرباعه. نسيت أن أخبرك أن جميع الحقول المجاورة لمزرعتنا صودرت. اتهموا (محمد) ابن سعيد الشايب بأنه يضرب قذائف الهاون على مستوطناتهم من أرضه. محققون آخرون وجهوا له تهمة مساعدة المخربين. وعند تجريف أرضهم ابتلعوا بقايا حقلنا. أصبح الآن صحراء وارفة الموت كوجوهنا الباهتة. لست أدري هل سيتركوننا أم سيستولون على أرضنا!

لو تعلمين يا كوثر كيف أضحت ابنتنا (نور) الآن؟ إنها تشبهك كثيراً. أمي تقول ذلك دائماً وتدعو لك. كم أصبحت تحبك. ليست كما كانت في سابق عهدها. فقط تشدو بكلماتها الملتصقة بجدران عقلها الصلب "لا هي من توبنا ولا إحنا من توبها". لماذا كانت تقول ذلك؟ أظنّ أن هذا السؤال صار يراودني كل مساء. ربما لأنك ولدت في سوريا. هنا كثيرات أيضاً مثلك من سورية، ولبنان. كلّنا لاجئون. أمي لم تدرك ذلك إلا في هذا الزمن الأغبر.

أمسى الظلام يلفّنا الآن، يستر عوراتنا جميعاً، حتى (نور) التي

ستدخل المدرسة العام المقبل لا أملك قوت يومها. إنها الآن تتعلم في المدارس التمهيدية للاجئين. وغداً. كم أخشى غداً. لم يكن أبي يخشى غداً، لماذا؟ حتى عندما انفجرت انتفاضتنا الثانية لم يكن يلقي أي بال تجاه غد. الناس يهذون بالاجتياحات وحظر التجوال وأبي يضحك. رحمه الله كان يقول "لا تخاف من بكرة. فكّر باليوم وانسى امبارح"! ما هذه الحكمة الغريبة التي كانت تنفرج عنها شفتاه. أية جرأة وأي يقين كان يمتلك!

المهم قبل أن أنسى، أعتقد أن في جعبتنا الكلام الكثير والوقت تدار كنا. فقط أريد أن أذكرك أنني استعنت بأحد أبناء عمي في ألمانيا كي يسهل لي الحصول على تأشيرة سفر "فيزا". هناك سألتقي بك. أمي سئمت تلك الحياة. وهي اقترحت عليّ أن ألجأ إلى بلاد الكفار كما تقول. سوف أرسل لك من هناك كي تحضري. أنا و(نور) سنكون في انتظارك. سلاماً. حتى ذلك الوقت لا تحرميني من ذكراك الجميلة ودعائك لي.

المخلص

ياسر

*****

الرسالة الثانية

الثانية صباحاً من تباشير أيلول ٢٠٠٢

أخي وحبيبي سالم،

تحية طيبة و بعد،

اليوم لن أبدأ لك بالمقدمات التي أكتبها دائماً في رسائلي. فالوضع جدّ خطير. ولا يحتاج منا إلى التكلف في الحديث. الأسبوع الماضي كانت الضربة قاسية في منزلنا . طوحت بأجسادنا الملتهبة. قصمت ظهر أمك التي تنتظر رحمة الله بها. كان الظلام شديداً وأصوات القذائف تقترب من ثكنتنا الضيقة. الناس يتصارخون، يبكون. سمعنا القصف بجوار المنزل، فخرج أبوك. أراد أن يعرف ما يجري في الخارج. ويا ليته ما خرج. وصل الباب. وجد مجموعة من الشبان يتمنطقون أحزمة متخمة بالقنابل والرصاص. سألهم

عمّا يجري فلم يجيبوه. طلبوا منه أن يدلف إلى الداخل لأنهم كانوا منشغلين بتركيب قاذفاتهم الصغيرة.

لو تعرف كيف هم الآن شبابنا يا سالم؟ جاءوا من ريح الانفجار الذي حطّمنا على عتبات الوطن. في عام ٤٨ كانوا ينسحبون. ينهزمون ويقولون انسحبنا. كنا نقرأ ذلك في كتب التاريخ ونبكي. ننهزم ونعود بذيول العار الذي لحقنا إلى غزة. حتى أنني قبل أسبوع بكيت. كنت أقرأ رواية (باب الشمس) لإلياس خوري. وبكيت. ضحكت من نفسي على ذلك، لكن الحقيقة كم هو جميل أن تبصر الأحداث. كيف حلّت بنا الكارثة؟ وكيف نحن الآن؟ نحن الآن نختلف. إنهم ينتظرون اليهود. بل يذهبون إليهم بأقدامهم. الجميع ينشد الشهادة. يريد أن يقدّم شيئاً للأرض. الكل كما تسمع وترى على شاشات التلفاز يجهز نفسه للمعركة الحقيقية. إنهم الآن ينتشرون في ردهات المخيم. كما كانوا بالأمس وقتما حدث ما حدث. وقفوا لساعات طوال على بوّابة المخيم، وعندما سمعوا الانفجارات تئن في الحيّ المتاخم لنا، انسحبوا. لا لم ينسحبوا بل تقدّموا. وقف أبي حاسر الرأس. ظلّ جالساً بجوار منزلنا الضيّق، أشعل كانون النار وجلس. ظل يشدو، يبتهل بآيات القرآن الكريم، وأمي تدعوه للولوج. كان يرفض ويأمرها بالخلود إلى النوم. أمي كما تعلم لا تعرف طعم النوم دون أن يكون بجوارها والدك العجوز. وجلس أبي بجوار النار حتى الثالثة صباحاً، وعندما همّ بالنهوض توقفت سيارة عسكرية بجواره. هكذا وصفها جارنا أبو أحمد الأعرج. توقفت واشرأب من خلف شباكها وجه مدقع السواد. تحدث مع والدك بكلمات قلائل ثم بعدها حدث ما لم يكن بالحسبان. اقتادوه معهم. وفي الصباح بحثنا عنه في كل مكان، توجهنا إلى مراكز الشرطة، المستشفيات. لم نجد له أي أثر. لكن المفاجأة كانت عصر الأمس. جاءنا أخي الأصغر سمير يصرخ. هتف بأن أبي يقبع تحت ظل شجرة الزيتون في حقلنا. انطلقنا نتعثر في ملابسنا. أسرعنا، وهناك وجدناه مضرجاً بالدماء. صرخنا. طلبنا الإسعاف، لكن بصيص النور ظهر من عينيه قبل أن

يموت. ظلّ يردد اسمك. كان متوسداً حجارة الأرض الصماء يهذي باسمك. أنت لم تعرف كيف هم المستعربون الآن؟ يدلفون مخيماتنا ويقتلون من يشاءون ثم يفرّون. سألناه عن حاله. لم يجب. رجوته أن يتحدّث قبل أن ينقطع حبل الروح. بانت أسنانه البيضاء. تفوّه بكلمتين ثقيلتين ثم غادرنا. قال أعيدوا لي سالم. ازرعوا أرضكم من جديد. حينها تشققت أوداجه ولفظ كلمة (الله) كما كان يرددها في زاويته. تنهد، ومات. اليوم واريناه التراب في مقبرة المخيم. جاءني المعزّون. كان بينهم (كمال) صديق أبيك الحميم. رفيقه في معركة القسطل. أخبرني بما كان يراودني. ما الذي أتى بأبي تحت شجرتنا السامقة؟ أهو تهديد منهم أم؟ أم ماذا؟ أخبرني (كمال) بأن أباك كان في أسبوعه الأخير يتنشق رائحة الموت. يهذي في مناماته. يرى فيما يرى النائم جسد أخيه الحاج (محمود) الذي استشهد في المعركة، يدعوه للذهاب إلى الحقل والتمدّد منصهراً على سفوح الأرض ليلقاه كما كانوا يتواعدون في سابق عهدهم. أدرك والدي الحلم ونهض. ذهب إلى هناك. ومات. أمي الآن أدركتها إرهاصات الانفجار. أصابتها لوثة الجنون. كأنها تصارع الموت. تدعوك في أحلامها. تنوح باسمك. كأنك أنت الذي متّ. إنها تريدك. وهذا ما دعاني لأكتب إليك. أبعث في طلبك. أريدك أن تحضر. أن تترك ما بيديك وتعود. احضر زوجتك الفرنسية معك إن شئت. المهم أن تحضر. الأرض تنتظر أصحابها يا سالم. هذه وصيّة أبيك قبل أن يموت. أنا لم أبع الأرض رغم القحط المحدق بنا. ولن أفكر باللجوء لأيّ مكان. إنني هنا عند قبر أبي في انتظارك. أعلم أنك ستأتي وتحقق حلم أمك الذي يراودها الآن. أنا في انتظارك في أية بقعة تريد من هذه الأرض. قبل أن أختم حديثي لا تنس قراءة الفاتحة على أرواح والدك وأجدادك الذين في التراب.

والسلام ختام

أخوك

حمدان

الرسالة الثالثة

الأربعاء – أغسطس ٢٠٠٣

عزيزتي ماريا،

معذرة من أجل رسالتي القصيرة. لا أظنّ أنه كان من الممكن لي أن أرسل لك من هناك. ولا أظن أننا سنلتقي أبداً، فقد سئمت حياتكم. الروتين. الملل. أنا لا أريد الموت الطبيعيّ. أخبرتك بذلك آلاف المرات. أشعر الآن بأن نهايتي اقتربت. بالأمس عدت إلى غزّة مسقط رأسي. انتظرت أسبوعا على الحدود، تمّ استدعائي للتحقيق، لكنني ولجت حصار الوطن، ذقته. تركت دياركم.

غريب أنا، أليس كذلك؟ أعرف أنك الآن تتساءلين كيف فعلت ذلك؟ أنت لا تفهميننا نحن اللاجئين. المشاهد على شاشات التلفاز أثارتني، طوّحت بجسد الراحة داخلي. أنا الآن أموت، أتفهمين معنى الموت؟ عدت إلى غزّة لأموت بين جوانح راحتي. عرفت كيف سأنتهي. تعلّمت الدرس الأخير من غسان. غسان كنفاني الذي أخبرتك عن قصصه الرائعة عندما كان يقول "ليس مهماً أن تموت، لكن المهم أن تعرف كيف تموت"!

أنا الآن مرتاح جداً. أشعر بأن روحي تحلّق في عالم غريب، لكنني قطعت أشواط الطوفان من أجلك، كي لا تقولي عني إنني سيئ لتركي إياك دون وداع. ها أنا أودّعك الآن. إلى اللقاء. أي لقاء. سلاماً. وداعاً، فلقد عرفت معنى الوطن هنا، بين أمثالي.

سأتطوّع بعد أيام في مستشفى المخيّم لمعالجة المرضى. أما عندكم، فهناك كثير من الأطباء وأنت معهم. هنا أنا. أنا هنا، المرضى، المصابون، الجرحى، الحرب، السلم.

وداعاً أيها السلم. وداعاً.

هاني

نهاية لهذا الاختصار، ليس إلا.
قولوا ما يحلو لكم، أو ما يجول في خواطركم. أعلم أنكم ستركبون برؤوسكم بحر الأسئلة. ثم تنفجرون بشتائمكم. إن أخبرتكم لن تصدقوني. أنا لا أعلم شيئاً عنها. وأقسم على ذلك. إنني ساعي بريد غريب عن هذه المنطقة. استلمت عملي حديثاً ولا أعرف هذه العناوين الضيّقة.

يا لحظي العاثر. يبدو منذ البداية أن مهمتي ستكون صعبة. لست أدري. هل علم أحد بأنني أعمل في البريد فألقاها في الطريق عمداً؟ الحقيقة، لا أعلم. لكن أرجوكم ساعدوني لنؤدي تلك الأمانة وأنتهي من أمرها.
لحظة، أرجو المعذرة!
إن أصابكم إرهاق البحث، اتركوها. لا تشغلوا أنفسكم بها، فأصحاب الحقّ لا يتوهون في أزمانٍ التعثّر الوئيد. هذا إرثهم وسيأتون. أظنّ أنني أدركت ذلك أخيراً. فهمت كلّ شيء. اسمحوا لي الآن بترككم. يبدو أن هناك رسائل أخرى في الطريق الآخر. وداعاً. إلى اللقاء!

لبناق الجرح

– لبنان سينفجر.
– الجدران توشك أن تتصدع، تتهاوى.
– الطيران الغاشم يحلّق في المدى الفاصل بين الموت والموت.
– على جميع المواطنين النزول إلى الملاجئ فوراً.
أصوات تتبعها صفارات باهتة، ميتة. قذائف تراوغ الجميع وتسقط بين ركام الحزن. تتنزّل ككتل من نيران لم تشعل غضبها بعد. تهوي ونهوي معها، أنا وجيراني الغرباء. لحظات يرتجف فيها ليل الضاحية الجنوبية جزعاً، يحاول كلّ واحد منا الاختباء في جحره، نلتمس الجنون، نجري كعواصف تنوء بحملها، نتعثر بأجسادنا الباهتة. وعلى بوّابة الملجأ تلامس أيدينا كلّ ما هو مرفوض، نتخبط في أرواحنا، نبحث عن نور فتّان. ندلف إلى سكون مرعب، نطأ بأقدامنا الحافية الأرض.

الأصوات في الخارج تهدر كبركان لم ينفجر، أغطس مع جاري كبير السنّ في زاوية من زوايا المكان، يسارع أحدنا إلى إشعال أضواء بطاريّته الصغيرة، وصوت المذياع يغيب مع صرخات الوافدين. يحاول جاري استثارتي واستجدائي في الكلام، يهتف بصوت مرتفع يغطّي الجلبة:
– يبدو أن القصف سيكون كبيراً هذه المرة.
يصمت دون أن يستمتع بردّ مني. لحظات تتعالى فيها الأصوات، تتضخّم. نحاول معرفة أماكن القصف، والمذياع في يد جاري خابٍ تماما.

– القصف يلهب أرض الوطن، فلتنتفض الحجارة.
– فلتنفجر المقاومة، ولتكوني أيتها المقاومة الإسلامية الباسلة عنواناً لصمودنا.
شخير وبكاء. في زاوية قريبة تولول إحدى الفتيات، تهذي دون

صدىً، تترنّح على حبيب لم يعد منذ أسبوع من الحرب. تواسيها إحدى العجائز بينما تُفقِدنا أهازيج القذائف صوابنا، يرتبك جاري المسن، يبحث في مذياعه عن محطة تحمل هماً جديداً.
– هنا هيروشيما، نجازاكي جديدة.
– هنا حمام الشط، بيروت ٨٢.
– إنها سياسة الأرض المحروقة التي يسعى إليها المغتصبون.
يسألني الواقف بجواري مرة أخرى، وقد بدا على وجهه الاهتمام:
– ماذا يعني هذا المذيع بسياسة الأرض المحروقة؟
أحاول أن أشرح له هذا المصطلح البائس بأبسط ما أملك من كلمات، وكلّ كلمة تخرج من فمي، تتبعها في الخارج عشرات القذائف والصواريخ، نستمع من جديد إلى مذياع العجوز:
– تنبيه إلى جميع مستمعينا في الداخل والخارج.
– عليكم التحلّي بأقصى درجات الحيطة والحذر، والنزول إلى الملاجئ.

يبتسم جاري، بينما تطفر دمعة على خدّه. يشعل سيجارة كانت هي الأخيرة في جعبته. ينفث الدخان في وجوه الحاضرين. تسقط دمعات دافئة تبلّل أرض الملجأ الصلبة. يحدّق في كلّ شيء أمامه، كأنه يراه للمرة الأولى. يحدّق في سكان البناية جميعها. يسألني محاولاً تصنّع ابتسامة باهتة:
– أهؤلاء جميعاً يقطنون معنا في هذا البرج؟

لم أدر كيف أجيبه؟ أبتلع الصمت من جديد محاولاً الاستماع إلى آخر ما يجري في الخارج من خلال المذياع الذي بحوزته.
كأنّه يفهمني، لكنه يحاول إغاظتي. يشرخ جدار الصمت بأسئلته الباهتة، والقذائف تنحني في أغوار سحيقة، تصرع بداخلنا حياة كان لها طعم الحنّاء. يتوقف العجوز أمامي حانقاً، يلقي بسؤال مرعب في وجهي بعنف:
– أين هي الجيوش العربية؟ ولماذا يشترون كل هذا السلاح؟!

يتوقف، وأمامي تتوقف الحياة جميعها. كيف لي أن أجيبه وأنا أدرك أن ما يرجوه لن يتحقق؟ تطفر دمعة على خدّي وأنا أبصر الأطفال داخل هذا المكان الموحش يصرخون. نشيج متقطّع يصدر في كلّ زاوية من زوايا الملجأ. وقبل أن ينتهي البكاء، يكون الغبار قد ملأ المكان و نكون ضحايا بين الأنقاض.

العبـــــــور

على حافة الآن، تتنفس أسراب البشر – المنهكة من ردهات الماضي – الصعداء. ومع تهاويم العبور، تنطلق الأنفاس مسافرة إلى مرافئ البعيد. يندفعون في رحم الممرّ الضيق، المثخن بالجراح. تتضرّع الألسنة لاهثة تلهج شكراً لله على ولوج بوابة الحاضر. ينزل ركّاب الحافلة خلسة من الضوء القادم من الشرق إلى نقطة العبور. يتبعهم سيل الرائحة المفعمة بنشوة الجوع، اللوعة لثكنات قديمة ندفت منها حبّات أريج الحلم.

كان يسير بينهم عارياً من الخوف، متدثّراً سترة الوهم إلى أفق صورة السّجن التي أطاحت به، وعلى بوابة الآن اللزجة، السائلة من منبع الأمس، ينزلق إلى ردهات التفتيش التي انتظرها طويلاً، خمسة أيام دون الوصول إلى هذا المكان. يقبض بإحدى يديه على تصاريح العبور وجواز سفره الأخضر بعنف. يتمايل قليلاً، ناعساً، يمر بعينيه على الزجاج الأسود. تتضح من خلاله صورة مجنّدة تعبث بجهاز الرّصد لمن هم في عمره القديم.

عندما يجتاز الصورة، تبقى الذاكرة في مصبّ الحكاية. يداخله إحساس غريب بأنهم قد يعتقلونه الآن، رغم تركه ليسافر. راودته فكرة أزلية تعبث ببواطن نفسه، كأنهم تركوه لكي يريحهم من عناء البحث عن رجل الظل، وها هو يعود الآن. الألم دفين، يعتمل في صدره. تنظر إليه المجندة من بعيد. تراوده أيقونة الوجه القاحل، كأنه رآه من قبل. كانت تسلمه ملابسه، أماناته التي لم تكن أيّ شيء، حذاءه المهترئ. تأمّل تضاريس جبهتها القاتمة، حدق فيها كثيراً. سرح طائراً إلى الأفق القصيّ هناك، داخل الغرفة المعتمة والمردوان التائه في نبضهم. تقوّضت وشائجه معهم قبل أن يتركوه. كانوا رفاقه، رفاق السلاح. كانوا جسداً واحداً لكنّ شكوك الانحراف بدأت تراودهم أخيراً. اختلفوا في كيفية العمل

بعد الخروج من رحم الموت إلى حياة المخيم.

يخرج جوازه من كوة الاغتصاب إليها. يقف واجماً، يأخذه من الجندي الذي يبتسم له بحذر. يتمنى لو يبصق كلّ منهما في وجه الآخر. يعود. يأخذ تصريح الدخول إلى المدينة الضيّقة. يجتاز الممرّات الطويلة، الضائعة في متاهات الجرح. يرن جرس ماكينة التفتيش. يتجمّد مكانه. يأمره الجنديّ بالتوقف. يزايله أريج الشوق إلى بيته. يقف قريباً من المجنّدة، ملامحها بائسة. شبق رائحتها يتبخّر في أنفه. يأمره الجنديّ بخلع حزامه فيفعل. يمرّ من النقطة دون صوت. قيثارة صمت تشدو بهاءها القديم. يعود مرة أخرى إلى البقعة الداكنة من باص العودة إلى دهاليز الحي. يبتسم لاجتياز ظلام العبور مرة أخرى، يتبعه ظله ميتاً. يتمتم شكرا لخالقه. يحمل أمتعته الثقيلة على ظهره.

تجلو خطواته الوطن الآن، تتضح معالمها. يسير جذلاً، يشدو بانتهاء حصار الظل أخيرا والدمعة تتهادى غريبةً بين أهداب عينيه قبل أن تهوي على أرض المعبر النتن. يقايض فيها المسافة بالسكون. يريد أن يحلم بأنه أدرك المكان حقاً. يمتدّ زحفه. لا يرى شيئاً. فحيح قدميه يرتطم بالأرض، ودّع أهله كشبح لن يعود. الدمع يعزف سيمفونية اللاعودة الأولى. ومع خطوة الانتصاف تطأ قدماه أرضه المتصلبة، الصارمة كوجهه الميت. رائحة النتن تبرز مع أكياس قمامة تبعثرت في شتى الاتجاهات، تستقر الرائحة في ضباب الصمت، تحاصره، تلفه، يستنشقها متألماً. يقذف عينيه محدقاً في بقايا الصورة. يغلق باب الماضي البعيد. لن يعود إليه أبداً. يصل أسلاك المدينة الشائكة. يتوسد الرمل، يقبّله كحبيبته التي تركته منذ سنوات الجدب، الفتح. يسأله السائق عن الجهة التي يقصدها، يتلفت حوله، يتأمّله، تقاطيع وجهه راسخة المعالم، الآهة تظهر على قطيع الجسد المثخن بالجراح، يريد أن يتفوّه بكلمة واحدة، لكن قوة الصمت تردعه. يناديه السائق مرة أخرى:
– أية قبلة تريد؟

يترنّم بصوت النائم، الحزين:
– غزّة!
يقف السائق واجماً. تظهر نبرات الجزع والألم في صوته وهو يتمتم، بينما تنزلق دمعة على خدّه من جديد:
– القطاع مقسم منذ أسبوع إلى أربعة أجزاء، و لا ندري متى سيفكّ الحصار!

يصمت، بينما يغمض الآخر عينيه بنشوة انتصار ضئيل، ميت. ينام الليل كله مع وهج الظلام ساكناً. شوقٌ عارمٌ يلفّه، يحاصره، يستبدّ به، يلفحه في انتظار خطوة الوصول إلى الروح البعيدة .

الفهرس

١- على موتها أغني 4
٢- فتاتان برائحة الغربة 7
٣- طائرة لحرمان قديم 10
٤- المسافر 13
٥- عريس آخر النهار 17
٦- فلسطين تحت المطر 20
٧- خلف جدار الموت 22
٨- وجه غريب 24
٩- حذاء لكل الطرق الملتوية 27
١٠-هواجس النهاية 29
١١-أسطورة الزمن الغائب 31
١٢-سهوا كل ما جرى 34
١٣-ترانيم الخوف 41
١٤-وداع أخير 48
١٥-ظلال الرجال 54
١٦-تحدث الراوي فقال 58
١٧-العجوز والرجال 63
١٨-صخرة الجلمود 67
١٩- الغضب 70
٢٠- زوجة عابر 75
٢١- رسائل باهتة 78
٢٢- لبنان الجرح 86
٢٣- العبور 89